اقرأ

فتحي سعيد

عشاق.. لكن شعراء

٧٧٣

اقرأ

تصدر أول كل شهر
[٤٥٦] - ١٥ نوفمبر ١٩٨٤

رئيس التحرير **أنيس منصور**

فتحى سعيد

عشاق .. لكن شعراء

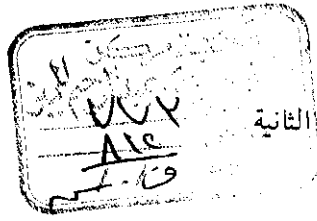

الطبعة الثانية

دار المعارف

تصميم الغلاف : صلاح عنانى

الناشر : دار المعارف – ١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

نعم . . هم عشاق
وهم شعراء كذلك . .
ولأنهم عشاق وشعراء عاشت قصائدهم تروى وتغنى
وظلت حكاياتهم تحكى وتقال . .
كانوا عشاقاً من نوع آخر . .
ولذلك كانوا شعراء من نوع آخر . .
لم يقفوا على باب ملك أو أمير طمعاً فى ذهب أو خوفاً من طعنة سيف . .
ولم يهيموا بليلى أو لبنى . . ولم يتغنوا بهند أو دَعْد . . ولم يذرفوا الدموع السوافك على أطلال « خَوْلة أو الرباب » .
ولكنهم انطلقوا على سجيتهم يعشقون ويهيمون ويغنون . . عشقوا القيم العليا والشموخ والكبرياء والمغامرة والإباء وهاموا بالفن والفكر والشدو والكشف والارتياد . . وغنوا لمحبوباتهم الأثيرة كما لم يغن أحد من قبل . .

ودفعوا فى سبيل عشقهم أغلى وأثمن ما يدفعه عاشق وشاعر . . لذلك جاءت أشعارهم نابعة من صدق حميم ناطقة بحكايات عشقهم الجميل النبيل .

نعم . .

شعراءُ لكن عشاقٌ
عشاق لكن شعراءُ
كتبوا بالعشق على الماءْ
فاخضرَّت شفةُ الغبراءْ
عشاق إن جنَّ مساءْ
فرسان عند الهيجاءْ
إن حلموا فالريح خُزامى
أو غضبوا صارت نكباءْ
إن شدوا كانوا إعصارا
أو عشقوا صاروا شهداءْ
نقشوا أنباء مآثرهم
كتبوا ملحمة الشرفاء
رُوَّاداً عاشوا وأباةً
كثرت بينهمو الأسماء
سيرتهم أغنية تُتلى
أموات لكن أحياء . .
شعراء لكن عشاق
عشاق لكن شعراء . .

القاهرة يونيو ١٩٧٨

فتحى سعيد

دِيكُ الجِنْ . .

عاشقُ المأساة

يا طلعة طلع الحِمامُ عليها
وجنى لها ثَمر الردَى بيديْها
رَوَّيتُ من دمها الثرى ولطالما
رَوَّى الهوى شفتىَّ من شفتيْها
قد باتَ سيفى فى مجالِ وشاحِها
ومدامعى تجرى على خديْها
ما كان قَتْلِيها لأنى لم أكن
أبكى إذا سقط الغبارُ عليها
لكن ضننتُ على العيون بحُسْنِها
وأنِفتُ من نظر الحسودِ إليها . .

«ديك الجن»

ديك الجن

وصفوه بأنه عطيل العرب . .

فحبيبته « ورد » أشبه « بديدمونة » البريئة .

« وأبو الطيب » ابن عمه أشبه « بياجو » ناسج خيوط المؤامرة

« وقارورة العطر » عنده . . مثل « المنديل » عند عطيل . . دليل الخيانة .

نفس خيوط المؤامرة . . فكان أسبق فى العشق والمأساة .

وكان قمة من قمم الدراما العربية الباكرة . .

وقد كفل لمأساته البقاء والانتشار كونه شاعراً استطاع أن يصورها ويحكيها بشعره الذى أوقفه عليها حتى شاع على ألسنة النادبات والنائحات .

اسمه : عبد السلام بن رغبان الحمصى .

وشهرته : ديك الجن . .

ولهذا اللقب الذي اشتهر به أكثر من معنى ذكره المؤرخون فهو يعنى كما يقول «الدُّميرى» فى حياة الحيوان الكبرى نقلا عن عجائب المخلوقات للقزويني :

« ديك الجن دُويبّة توجد فى البساتين إذا أُلقيت فى خمر عتيق حتى تموت وتترك فى محارة وتسد رأسها وتدفن وسط الدار فإنه لا يرى فيها شيء من الأرضة » .

ويقول صاحب تاج العروس : « الديك فى لغة أهل اليمن الرجل المُشفق الرءوف » .

ويقول الثعالبي فى المضاف والمنسوب :

« ديك الجن يضرب مثلا للديك النجيب الحاذق الكثير السفاد ومنه سمى ديك الجن الشاعر المشهور » .

وقالوا فى تفاسير أخرى لأن عينيه خضراوان أو لكثرة خروجه للبساتين وعكوفه على الشراب .

أما حبيبته التى قتلها بيديه فهى « ورد بنت الناعمة » أو « دُنْيا » كما يؤكد « ابن خلكان » .

ويقول العاملى صاحب الكشكول : «كان له جارية وغلام وكان مشغوفاً بحبهما فوجدهما فى بعض الأيام مختلطين تحت إزار واحد فقتلهما وأحرق جسديهما وأخذ رمادهما وخلط به شيئاً من التراب وصنع منه كوزين للخمر وكان يحضرهما فى مجلس شرابه ويضع أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله فتارة يقبل الكوز المتخذ من رماد الجارية وينشد :

يا طلعة طلع الحمام عليها
وجنى لها ثمر الردى بيديها

وتارة يقبل الكوز المتخذ من زماد الغلام وينشد :

وقتلته وله على كرامة
ملء الحشا وله الفؤاد بأسره . .

وقد كثرت فيه الأقوال وتضاربت التفاسير . . فذكره ابن رشيق فى العمدة والأنطاكى فى تزيين الأسواق والأصفهانى فى الأغانى ووصفوه بأنه شاعر مغلق من المحدثين أدرك زمان المتوكل (١٦١ – ٢٣٥ هـ) ومات فى عصره » .

كما كتبت فيه عدة روايات وأشعار معاصرة . .

تلك هى حكايته نرويها . .

بكاكَ أخٌ لم تحْوه بقرابةٍ
بلى إن إخوان الصفاءِ أقاربُ

* * *

حفل زفاف

ديك الجن : حقاً لقد كبرت الصغيرة يا بكر . . انظر إلى ورد وهى فى ثياب عرسها كأنها الملك المتوج . وكأنها لم تكن طفلة الأمس التى تلهو بين أترابها .

بكر : وكأنى بك لم تكن عاشق الأمس الذى يطارد وردً خلف روابى حمص وعلى ضفاف نهرها . . ترميها بثمر اللوز و لزنبق وتفتنها بشعرك . .

ديك الجن : والله يا بكر . على قدر ما يشاع عنى من لهو وترف فلم أعرف الهوى على قدر ما بلوته . . إلا حين عرفت ورد . .

أتانى هواها قبل أن أعرفَ الهوى
فصادفَ قلباً خالياً فتمكَّنا

بكر : ومن غير ورد . . يملأ قلبك ويكون لقصرك نوراً . . ولشعرك وحياً . . ولبستانك عطراً . . ؟ ؟ فلتكن أيامكما رغداً وسعداً . . ولقاؤكما بلا فراق . .

ودعتها لفراقٍ فاشتكت كبدى
إذْ شبَّكت يدها من لوعةٍ بيدى
فكان أولَ عهدِ العين يوم نأت
بالدمع آخر عهدِ القلبِ بالجَلَدِ

ديك : جسَّ الطبيب يدى جهلا فقلت له
إن المحبة فى قلبى . . فخلِّ يدى

أتذكر تلك الأيام الخوالى يا بكر . . حيث ورد وهى تبترد بين صويحباتها على ضفاف نهر العاصى . . وفى بساتين حمص ؟ !

بكر : وأذكرك طائراً جوالا يرف حول الزهرة الصغيرة حتى إذا آن قطافها . . كانت له دانية خالصة فلعل كبدك الحرى قد شفيت يا شاعر حمص .

ديك : ولى كبدٌ حرَّى ونفس كأنها
بكف عدوٍ لا يُريد سَراحَها
كأن على قلبى قطاةً تذكرتْ
على ظمأٍ ورداً فهزَّتْ جناحها

بكر : وأذكر أيضاً قولك .

كأن قلبي إذا تذكرها
فريسةٌ بين ساعدَيْ أسدِ

ديك : الحمد لله الذى حقق الأحلام وجمع الشمل فكانت لى ورد . . وأدعوه أن يحقق حلمك فيجمعك على دلال . .

بكر : د . . لال . . هذا كلام معاد يا سيدى . . ودلال جاريتك التى وهبها الله الجمال والملاحة والخفة . . والصوت الجميل و . . .

ديك : كما وهبها الله قلباً لا يشغله سوى حبك .

بكر : ولكن . . لَم يدر بيننا مكاشفة أو تصريح بشىء . . وكم تعلم يا سيدى فإن قلبى لا يخلو من الحسان الفاتنات . .

ديك : ومن منا خلا قلبه ؟ . . إن الحب غلاب يا بكر . . أوكنت تظنه يأخذ بتلابيبى فأهيم بورد ؟ . . وأنا الذى لم يخلب لبه حب قط .

بكر : والله ما ظننت سيدى قط . . وهو يثقل فؤاده من هوى لآخر ويرمى بسهامه عيون المها ونحور الظباء . . إنه واقع فى الشرك . .

ديك : وها قد وقعت . . . وأراك واقعاً فيه أيضاً .

انظر دلالا . . وهى بجانب ورد كيف لا ترفع بصرها عنها .

هكذا العشاق قاتلهم الله يكتمون حبهم وتفضحهم عيونهم :

دلائلُ الحب لا تخفى على أحد
كحامل المسك لا يخلو من العبق

دلال : إن فرحتى يا سيدتى ورد . . وأنت فى جلوة عرسك كالقمر على عرش تمامه . . لا تعادلها فرحة . .

ورد : إن الفرحة الكبرى يا دلال . . هى حقاً . . عندما أراك فى ثوب عرسك تزفين إلى بكر .

دلال : بالله يا سيدتى دعى بكراً . . ولا تثيرى الأشجان فى هذه الليلة السعيدة . . إنها ليلة عرس وليست ليلة شجن يا سيدتى . .

ورد : ولم يا دلال . . وفيم الشجن ؟ !

دلال : لقد أعيانى بكر . . وأمر بكرى : حتى كأنه لا يحس بوجودى ولا بما رسخ فى قلبى من حب له .

ورد : ألم تبوحى له بحبك ذات مرة أو تلوّحى له ؟ .

دلال : أبوح له . . وألوّح ؟ ؟ إنه لا يحادثنى إلا لماماً . . وإن حدثنى يوارى عينيه عنى . . وكأننا لا نعيش فى بيت واحد :

أليس عجيباً أن بيتاً يضمنى
وإياكَ لا تَحْلو ولا تَتكلَّمُ

ورد : إنها علامات المحبين يا دلال . . يخافون أن تشى بهم العيون . . فيكتمون ولا يبوحون . . وستكشف لك الأيام ذلك فلا تجزعى . .

أصوات : يا ديك الجن . .
يا ديك الجن . . يا شاعر حمص .

ديك الجن : لبيكم أيها الأصدقاء . . لبيكم أيها الأحباء . .

أصوات : أيسمح لنا شاعر حمص وسيد ثُراتها أن نوادع معه حياة الليل والقصف . . والانطلاق وأن نشرب نخب زفافه السعيد . . فلا نظن أن أقدامنا تطأ دارك بعد أن ظفرت بدرة حمص وملكة غيدها . .

ديك : ولما نودع هذه الحياة . . ولماذا لن تطأ أقدامكم دارى ؟ !

صوت : لأنك دخلت قفص الزوجية الذهبى . . ولم تعد حرًّا . . .

ديك : ليهدأ بالكم أيها الأصدقاء فلن تطفأ لنا شموع ولن يصمت وتر . . أو ينفض سامر .

صوت : وكيف ؟ ؟ وقد أصبحت زوجًا . . وعن قريب ستصبح أباً . .

ديك : إن ورداً أيها الأصدقاء تعرف أنها زوج شاعر . . يضيق بالقيود والحدود . . ومن ثم ستكون له جناحاً ولن تكون قيداً . .

بكر : بل إن ورداً لم تحب ديك الجن إلا شاعراً محلقاً وقلباً خفاقاً . .

دلال : وإن سيدتى . . لا تروى إلا شعر ديك الجن ، وخاصة ما قاله فيها . . .

يأبى فمٌ شَهِدَ الضميرُ له
قبل المذاق بأنه عـذبٌ

ورد : كشـهـادتى لله خـالصـةً
قبل العيـان . . بأنه رب

أصوات : ليسعد الحبيبان والزوجان . . وليسمحا لنا بالانصراف فقد أوشك الفجر ولم نترك للعروسين بقية من ليل . .

أبو الطيب : بل لم يتركوا للعروسين بقية من مال يا ياسر . . فقد ضيع ابن عمى

ديك الجن نصف ثروته على اللهو والشراب . .

ياسر : وما إخاله إلا أنفق النصف الباقى فى عرسه الفاخر هذا . .

أبو الطيب : وستنجب له ورد وريثاً يؤول إليه المال . . ويؤول لنا بعد طول صبر الديون والهموم . . .

ديك الجن : اسمحوا لى أيها الأصدقاء قبل انصرافكم أن أقدم لورد هدية العرس . . . هدية لا يوجد مثيلتها فى الشام كله . .

ورد : قارورة عطر . .

ديك الجن : عطر نادر . . لا يستجلبه إلا الملوك والأمراء . . ولا يعرف سر تراكيبه إلا عطار الشام الشهير . .

أصوات : هبة الله ؟ ؟

ديك الجن : نعم هبة الله . . وهو لا يبيعه كذلك إلا للخلفاء والأمراء . .

أصوات : ولا يصرف ثمنه إلا من له خزائنهم . .

أو من له قرينة ديك الجن . .

بل قل من له ذوقه وسخاء يده .

أبو الطيب : بل من له سفهه وسوء تدبيره . .

ياسر : أمسك لسانك يا أبا الطيب . .

ديك الجن : هى هدية عرسك يا ورد . . عربون وفاء وحب . . وددت لو مزجتها بدمى . . وأحرقتها بأنفاسى . . وذوبت فيها قلبى . .

ورد : نعمت الهدية ونعمت اليد التى حملتها . . فسأجعله عطراً مقدساً أتعطر به لك وحدك يا زوجى العزيز . .

أصوات : سلاماً يا ديك الجن . .

سلاماً يا ورد . .

ديك الجن : شكراً لكم أيها الأعزاء . . ولقد آن أن تأخذوا قسطكم من الراحة لتستعيدوا قواكم إلى الغد . .

أصوات : إلى الغد ؟ ؟

إننا فى الغد يا ديك الجن .

ألا ترى تباشير الصباح تلوح . .

ديك الجن : نعم أراها . . وأسمع شقشقة طيورها . . وما بين طلعة الصبح ومساء الغد ما يكفى لنكون فى استقبال ضيف عزيز . .

صوت : ومن يكون ذلك الضيف العزيز ؟ !

ديك : إنه شاعر بغداد وفارس ندمائها وندواتها . .

صوت : أبو نواس . . الحسن بن هانئ . .

ديك الجن : نعم النواسى . . حيث يقضى ليلة معنا . . ليواصل سفرته فى الصباح إلى مصر . .

حفل استقبال

ديك الجن : مرحباً مرحباً بسيد الشعراء أبى نواس الحسن بن هانئ .

أبو نواس : بل مرحباً مرحباً بك يا شاعر الشام الذى فتن أهل العراق بقوله :

وتمايلتْ . . فضحكت من أعطافها
عجباً ولكنى بكيتُ لخصرِها
تَسْقيكَ كأس مدامةٍ من كفِّها
ورديةً . . ومُدامةً من ثَغْرِها

ديك الجن : لطف منك يا أخي أن تروى شعرى وتثنى عليه وأنت إمامنا فى هذا الفن . . وأين أنا منك فى قولك . .

تسقيكَ من يدِها خمراً ومن فمِها
خمراً . . فمالكَ من سُكْرين من بُدِّ

بكر : وهل نسيت يا سيدى قولك الذى سخرت به من الأطلال والسابقين :

عاجَ الشقيُّ على رسم يُسائلهُ
وعُجْتُ أسألُ من حمَّارةِ البلدِ

أبو نواس : أهى مقارنة يا ابن رغبان . . ؟ إذن فأين نحن من قولك :

نقِّل فؤادك حيث شئتَ فلن ترى
كهوى جديدٍ أو كوصلٍ مُقْبلِ
واشربْ على وجه الحبيب المقبل
وعلى الفم المتبسِّمِ المتقبِّلِ
شُرباً يُذكر كُلَّ حبٍ آخرٍ
يمضى ويُنسى كل حبٍ أولِ

ديك الجن : رويدك يا أبا نواس . . . و . . .

أبو نواس : بل رويدك أنت يا ابن رغبان . . أين هو الشراب الذى يذكرنا بالجديد وينسينا القديم ؟ وأين تلك التى أبكاك خصرها وسقاك ثغرها ؟ ؟

ديك : على رسلك يا شاعرنا . . هكذا أنت لا تفوتك شاردة ولا واردة . . إنها ليلتك يا أبا نواس . . لك فيها ما تحب وتشتهى . .

أبو نواس : إذن هيا يا ديك الجن . . هيا . . .

إسقني حتى تراني
أحسبُ الديك حِمَارا
وأرى الجُمْعة كالسَبْتِ
وكالليلِ . . النهارا

ديك : دلال . . دلال . .

دلال : لبيك يا سيدى . .

ديك : إن ضيفنا الليلة . . ضيف من نوع آخر . . ليله شعر وخمر وهو وغناء . . وإنه لظمآن جوعان . . إنه أبو نواس وهو من هو شعراً وظرفاً وأنساً . .

دلال : مرحباً يا شاعر بغداد وأهلا بضيفنا الحبيب . . لك ما شئت وطاب . . وعلينا الطاعة والجواب .

يا ضَيْفَنا لو زُرْتَنا لوجدتَنا
نحن الضيوفَ . . وأنتَ ربُّ المنزلِ

أبو نواس : رويدك يا دلال . . فمالى طاقة على لحظك ولا لفظك فقد وهن العُظمُ منى واشتعل الرأس شيباً .

دلال : وكيف وهو شاعرنا وهو القائل :

قالوا كبرتَ . . فقلت ما كبرتْ يدى
عن أن تحث إلى فمى بالكاسِ

ورد : وهل حجبك الكبر والشيب عن الشراب واللهو وأنت القائل :

لله دَرُّ الشيب من واعـظٍ
وناصح لو أخطأ الناصـحُ
يأبى الفتى إلا اتباع الهـوى
ومنهج الحقِ له واضـح

ورد : ولقد اتبع شاعر بغداد المنهج الذى يراه . .

ديك الجن : حسبكم يأصحاب . . وهوناً بضيفنا ولا تثيروا همومه وشجنه . .

دلال : وكيف تثار همومه وهو القائل يا سيدى :

لا تحسبنَّ عَقَارِ خابيـةٍ
والهمُّ يجتمعانِ فى صـدْرِ

بكر : إن أبا النواس لم يخطئ القول . . ولم يهم كالشعراء فى كل واد . .
وإنما قال ما أحسه أو نسيتم قول ديك الجن :

تعترفُ النفسُ ببعض القُـوَى
فأمسك النفس ببعض الخِداعْ

ديك الجن : بل أمسك أنت وصحبك يا بكر . . ولا تتكاثروا على النواسى فهو لم يسكر بعد . .

دلال : فليشرب ما حلا له الشراب ففى الدنان من المعتقات ما يدير لب شاعرنا . .

أبو نواس : وفى عيونك من النظرات ما يجعل السكرة سكرتين ! . .

دلال : فليكن ضيفنا إذن عِند قول سيدى . . .

سُكْرانِ : سكْرُ هَوىً وسكر مُدامةٍ
أنّى يفيقُ فتىً به سكْـرانِ ؟

أبو نواس : ويلى منك يا دلال . . والله ما أصدق قول سيدك ديك الجن وما إخاله إلا عناك حين قال :

فقامَ تكادُ الكأسُ تحرقُ كفـه
من الشمس أو من وجنتيه استعارها
مشعشعة من كفِ ظبيٍ كأنمـا
تناولها من خدِّه . . فأدارهـا

ديك الجن : لقد فتن النواسُ بدلال يا بكر . . ألا تغار منه ؟

بكر : وهل شكوت الوجد يا سيدى حتى أعرف الغيرة بعد ؟

ديك الجن : هيه أبا نواس . . هل أطفأت ظمأك بعد ؟ إليك إذن من أبكانى وأضحكنى . وسقانى من كفه وثغره . . إليك ورد . . زوجتى . . تقدمى حيّى ضيفنا يا ورد . .

ورد : أهلا بالحسن بن هانئ سيد الشعراء .

أبو نواس : إذن فهو أنت التى سبت قلب شاعرنا وأضحكته وأبكته ؟ والله لقد صدق فيه قولك الذى سار بيننا وشاع :

انظر إلى شمسِ القصورِ وبدرهـا
وإلى خزاماها وبهجةِ زهرهـا
لم تبلْ عينكَ أبيضاً فى أسـودٍ
جمع الجمال كوجهها فى شعرهـا

ورد : هو أنا والله . . يا شاعر بغداد فمرحى بك فى حمص . . .

ديك الجن : نخب أبى نواس أيها السادة . .

أبو نواس : بل نخب الشاعر الكبير الذى لا يعرف قدر نفسه .

بكر : من تعنى يا سيدى الشاعر – ديك الجن .

أبو نواس : ومن غيره ؟ أو تشكّون فى شاعرية صاحبكم وقدره ؟ . .

بكر : بل نلهج بها فى كل آن . .

أبو نواس : وأنت يا ديك الجن . . ألم يزرك أبو تمام وأنشدك شعره وهو مغمور بعد ؟ ودفعت له بحزمة من أشعارك قائلا له : تكسب بهذا يا فتى . كما يروى .

ديك الجن : رويدك يا أبا نواس . . إن أبا تمام الشاعر ملء الآفاق . .

بكر : بل حدث كما قلت يا أبا نواس . .

أبو نواس : ودعبل الخزاعى . . أولم يزرك أيضاً ووصفك بأنك أشعر الإنس والجن ؟

ديك : وأين نحن من دعبل بن على . . يا أبا نواس ؟

بكر : بل حدث ما قلت يا أبا نواس ؟

أبو نواس : إذن كيف يقبع شاعرنا بين جدران قصره فلا يغادره إلى بغداد وسائر العواصم حيث يجرى بشعره الركبان ويقدر حق قدره . . .

ديك : دعنى أسألك يا نواس ؟ لماذا غادرت بلاط الذهب والديباج لترحل إلى مصر وأنت ملء الأفواه والأسماع ؟

أبو نواس : إنما أطرق باب « الخصيب » حاكمها لأنال من خزائنه ما يعوضنى قلة عطايا الرشيد . .

ديك الجن : الحمد لله الذى لم يحوجنا لدنانير هذا ولا ذهب ذاك . عفواً لم أقصد تجريحك أيها الضيف العزيز فلدى زوجتى ورد وصديقى ونديمى بكر . . ولدى فى جمال حمص وهوائها مالا يغرينى بتركها . . .

أبو نواس : أما أنا . . فقد أذلني للناس إفلاسي . .

ورد : وماذا أعد الشاعر الكبير ليمدح به الخصيب حاكم مصر . .

صوت : فلنسمع يا أبا نواس . .

أبو نواس : على أن تسقيني دلال كأساً ثانية . . .

دلال : ثانية . . بل قل الكأس المائة بعد الألف . . .

أبو نواس : أو تعدين علي يا دلال ؟ ولم لا تعدين على سيدك حين قال :

عج عبراتِ المدامِ نحوي من
عشرٍ وعشرين واثنتي عشرة

ورد : ولكن شاعرنا يا أبا نواس كان على عجل وكان محبوبه على سفر فود لو عب معه الحياة قبل الرحيل حيث يقول في مطلع ما رويت . .

لحبها لاعجٌ وفي حرقٌ
مطويةٌ في الحشا ومُنْتشرة

أبو نواس : ونحن أيضاً راحلون غداً . . .

دلال : ولكنك لست محبوب سيدي يا سيدي . . وما ذاق منك ما ذاق من حبيبه من شم وضم :

ما ذقتُ منها سوى مُقبلها
وضم تلك الفروع مُنحدرة

أبو نواس : النجدة يا ديك الجن . . لقد وقعت بين براثن من هي أدهى من نقاد البصرة وعلماء بغداد . .

ديك الجن : كفوا عن النواسي ودعونا نسمع ما قاله في الخصيب . . هيا يا أبا نواس . . .

أبو نواس : قلت فى الخصيب يا سادة :

أجارةَ بَيتْنا أبوك غَيُـورُ
وميسـور ما يُرْجَى لديكِ عسيرُ
تقول التى عن بيتها خف مركبى
عزيزٌ علينا أن نراك تَسيرُ
دعينى أكُثر حاسديكِ برحلةٍ
إلى بلد فيها الخصيبُ أميرُ

ديك : الله الله يا أبا نواس إن الخصيب لابد أن يحشو فمك جوهراً . .

ورد : لقد كتبت للخصيب شهرة وخلوداً . .

دلال : وستبقى الشهرة والخلود . . وتذهب الجواهر والنقود . .

أبو نواس : وسأبقى هنا لأبد الدهر إن لم تمنعوا عنى دلالا . .

ديك الجن : ولن نمنعها حتى تبقى بيننا أبداً . .

بكر : أصغوا هذا ديك أبى نواس يصيح :

غـرَّد الـديكُ الصـدوحُ
فاسْقِنى طاب الصبـوحُ

أبو نواس : هذا هو ديك الصباح . . وهذا هو ديك الجن . . فأين الصبوح . . يا ساقية ؟

دلال : أولم يرتو ضيفنا بعد ؟ !

أبو نواس : تعاتبنى على شُرْبِ اصطبـاحِ
ووصلِ الليلِ من فَلَقِ الصباحِ

ألستم خير من ركب المطيا
وأندى العالمين بطون راح !

ورد : صدقت يا أبا نواس . . فما أخير ولا أندى من ديك الجن فاشرب صبوحك ما شئت . .

أبو نواس : ليتني أفعل . . ولكني سأتزود بالقليل فقد حان الرحيل . . .

ديك الجن : وددنا لو مكثت بيننا طويلا يا أبا نواس فما نشبع منك قط .

أبو نواس : دمت لنا يا ديك الجن . . ودامت لك ورد زوجة . . وبكر صديقا . . ودلال جارية لك ومعلمة لي . .

ديك الجن : دلال . . أعدي لضيفنا حاجة وزوديه بما يحتاج إليه مقره . . .

دلال : كل شيء أعددته يا سيدي . . .

أبو نواس : إذن لم يبق إلا أن أقوم . . .

ديك الجن : وأنت يا بكر تصحب ضيفنا العزيز حتى مشارف الشام .

أبو نواس

(راحلا) : يا ليلة طاب لي بها الأرقُ
حتى بدا من صباحها الفلقُ
في مجلسٍ ليس فيه فاحشةٌ
إلا حديثٌ ومنطقٌ أنقُ
يسقون من خمرةٍ معتقةٍ
لها دبيبٌ في لمح يستبقُ

طُرَّاق الليل

أبو الطيب : أتسمع يا ياسر؟ أتسمع لهذا الصخب والضجيج الذى يملأ دار هذا المعتوه كل ليلة . . إن كل ضجة معناها دينار يفقد ومال ينفد . .

ياسر : نعم أسمع يا سيدى . . وإن قلبى ليذهب حسرات معك . . ومع المال الذى يذهب هباء . .

أبو الطيب : تبًّا له . . يكتنز أجداده الأموال ويرثها هو ليبددها تبديداً . .

ياسر : لو علم أبوه بما سيؤول إليه ماله . . لما ترك منه درهماً واحداً . .

أبو الطيب : لقد حسبناه حين تزوج ورداً أنه سيصون ماله ويكف عن سفهه . . فإذا به يزداد لهواً وتبذيراً . . .

ياسر : بل حسبناه . . سينجب ولداً يرث هذا المال . . وها قد مرت الأيام فلا رزق ببنين ولا صان المال . .

أبو الطيب : ويلنا يا ياسر . . لشد ما أخشى ألا ينجب ولداً ويبدد ماله ولنا فيه نصيب وميراث فلا نرث إلا الديون لوظل على هذه الحال . .

ياسر : وما العمل ؟

أبو الطيب : لابد من وقف ذلك الشاعر المخروق الكفين عند حد . . هيا نقتحم داره ونفسد ليلته . .

ديك الجن : من الطارق يا دلال ؟

دلال : هذا ابن عمك أبو الطيب ومعه ياسر يا سيدى . . .

ديك الجن : أبو الطيب وياسر . . أى ريح ألقت بهما هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

ورد : ربما ألمّ بهما شيء . . فقصداك . . فلتمسك نفسك ولا تقل لهما إلا حسناً . .

ديك الجن : من ؟ ؟ أبو الطيب ؟ مرحباً بك يا ابن العم . . مرحباً بك يا ياسر . . تفضلا ما الذى أتى بكما هذه الساعة ؟

أبو الطيب : بل ما هذه الضجة التى سرت فى الليل وأرّقت النوام ؟ أى سلم وحمى ترتكبه يا ابن رغبان . . ؟

ديك الجن : سيجنس الضيفان أولا . .

ياسر : لسنا من رواد الحانات ولا من هواة المواخير يا شاعر حمص . .

ورد : وأسفاه . . أو دار عبد السلام بن رغبان حانة ومأخور ؟

دلال : قطع لسانك يا ياسر وقطع لسان صاحبك . .

أبو الطيب : أو لم يردعك أزواج أيها المتلاف . . فتكف عما كنت فيه . . و . . .

ديك : أو جئت فى هذه الساعة لتفسد صفونا وتكدر ليلنا . .

أبو الطيب : بل جئنا لنعظك ونرشدك علّ الله يهديك الصواب ويصون مالك ويقيك حاشية السوء . .

بكر : ويحك أيها الرجل . . أو تجرؤ على سب ديك الجن . . والتطاول على صحبه . . والله إن لم تكف لأجبرنك على السكوت . .

ديك الجن : هون يا بكر . . ما هكذا نسئ إلى ضيوفنا . . وهم فى دارى أولى بنا أن نتقبلهم ونحتفى بهم . .

أبو الطيب : بل أولى بك أن تتقبل نصحنا فقد فرغ صبرنا وتثوب إلى رشدك وتقلع عن ضلالك . . وتتزوّد لآخرتك . .

ياسر : وتنقذ ثروتك . . إن بقى منها شيء بعد . .

أبو الطيب : ثروة أبيك الذى تركها لك بعد أن جمعها بكده وجده لتنفقها أنت فى غير طائل . .

ياسر : نعم الخلف للسلف . . يبنى جدك حبيبٌ مسجداً فى بغداد وتحيل أنت بيتك حاناً . . .

ديك الجن : أراكما تفحشان القول . . وأرانى فى حلٍ من التزام الأدب معكما كضيوف لى فُكفا عن ذلك وإلا . . .

أبو الطيب : وإلا ماذا ؟ هه . . تطردنا . . قلها يا ديك الجن فلقد كشفت الحجاب و . . .

ديك : بل لقد كشفت الحجاب . . أنت يا أبا الطيب . . ولقد أعماك جشعك . . وما أنت بناصح ولا شفيق . . ولكنك جزوع على المال . .

ياسر : وما العيب أن نجزع على مالك . . وبيننا وشائج ومحبة . . ألسنا أبناء عم ؟

ديك الجن : لقد تحملتكما أكثر مما يطاق . . ولقد أفسدتما صفونا . . ولن اصفى لكما ولن أمكنك يا أبا الطيب من درهم واحد من ثروتى . .

أبو الطيب : أية ثروة يا ديك الجن . . بعد أن بددتها بتبذيرك وسفهك . ألم يلقبوك بديك الجن . . لكونك كتلك الحشرة التى لا تعيش إلا فى مناقع الخمر . .

بكر : صه أيها الحقير . . والله لأعلمنك الأدب . .

ديك : أيها اللعينان . . إن لم تخرجا الآن فوراً . قذفت بكما إلى

الخارج . . اخرج أيه التابع الذليل يامر . . وأنت يا أبا الخبيث
لا أبو الطيب لأهجونك بما لم تسمعه . . ولأفضحن جشعك
وحبك للمال . . هيا إلى الخارج أيها الشيخ . . ومن يراني أحاكي
وأنا حي ولا وأنا ميت :

ياعجبا من أبي الخبيث ومن سروجه في البكائر الذكره .

بكر : هات يا ديك الجن . . ولتهجه أقذع الهجاء . .

ورد : ولتعد إلى صفون . . وتنسى ماكان . .

دلال : ولتعرف الشام كنهها بهجائه . .

بكر : بل تعرف الشام والعراق ونجد واليمن . . وسائر الجزيرة . .

ديك الجن : يحمل رأساً تنبو نعاولٌ عن صفْحتِهِ . . وخلامدُ الوعرة . . .

لو البِغالُ الصُّلْبُ رَقَّتْ سَنَداً
فيه لمدت قوائماً خَدِرة
ياكلاً منّ وكل ضائعة
خسرٍ ويا كلاً سعةٍ عَسِرة
سبحان من يُمسكُ السماء على
الأرضِ وفيها أخلاقك القَذِرة
يا عجباً من أبي الخبيثِ ومن
سُروجهِ . . في البكائرِ الذُكُره

ياسر : عم صباحاً يا أبا الطيب . .

أبو الطيب : لا نعمت صباحاً ولا مساء . . .

ياسر : لم أيها الصديق . . كيف أصبحت ؟ !

أبو الطيب : على ما ترى . . قضيت الليل مبتل الثياب مقرور الجسد أرتعد من هول البرد .

ياسر : لقد مرغونا فى الوحل . . وانهمر علينا المطر كأنما يصب معهم اللعنة علينا .

أبو الطيب : بل سيصب الشيطان لعنته عليهم . . وينتقم لنا من ديك الجن شر انتقام . .

ياسر : أحقًّا ما تقول يا أبا الطيب . . هل آن الأوان للانتقام من ديك الجن .

أبو الطيب : نعم . . آن الأوان . . لننتقم منه . . ونحطم عناده وصلفه و . . .

ياسر : ونغل يده . . عن هذا المال الذى يتسرب بين يديه لعل فيه بقية لنا من بعده .

أبو الطيب : من بعده ؟ ماذا تقصد يا ياسر ؟ أفصح عما تكن . .

ياسر : بل أفصح أنت عما تضمر يا أبا الطيب فأنا أقرأ خواطرك فقل لى ماذا يدور فى رأسك ؟ !

أبو الطيب : إذن فاسمع . . لقد دبرت مؤامرة ؟

ياسر : مؤامرة ؟ أية مؤامرة ؟ وما هى ؟ !

أبو الطيب : قارورة عطر . . .

ياسر : قارورة عطر . . .

أبو الطيب : نعم . قارورة عطر ستكون هى سلاحنا فى المؤامرة . . ستكون بمثابة السم الذى يسمم حياة ديك الجن . .

ياسر : اخفض صوتك يا رجل . . فالناس حولنا تترقبنا ويتهامسون . .

أبو الطيب : نعم يتهامسون بقصيدته التى هجانى بها شر هجاء ، وكأنه نشرها على ذوائب الريح فتناقلها الناس . . .

أبو الطيب : أسمعت يا ياسر . . ؟ أو سمعت ما قاله هذا الفاجر فى ابن عمه . . لقد سرى شعره بين ليلة وضحاها . .

ياسر : وسيسرى كالنار فى الهشيم فيشيع فى حمص كلها ويعبر الشام على الأفواه وتمشى وأنت تغض الطرف كأنك « النُميرى » الشهير .

أبو الطيب : لابد من وضع حد لهذا . . لابد من وضع حد يا ياسر . . لقد زاد حقدى لما نزل بى من فضيحة هجائه . .

ياسر : ولكنك لم تخبرنى يا أبا الطيب بما أعددت . . لقد حدثتنى عن مؤامرة وعن قارورة عطر و . . .

أبو الطيب : نعم قارورة عطر يا ياسر . . ستكون خاتمة المطاف . . لقد حان موعد الانتقام وحانت ساعة السلام . .

ياسر : وكيف يا أبا الطيب . . ألا تروى غليلى وتكشف لى عن خيوط مؤامرتك ؟

أبو الطيب : نعم يا ياسر . . سأكشف لك . . ولكن ليس الآن . . لأن أمامنا مهمة أخرى . . مهمة أخرى أيها الصديق . . .

ياسر : مهمة أخرى ؟ وما هى تلك المهمة الأخرى يا أبا الطيب ؟

أبو الطيب : لا وقت للشرح أيها الصديق . . فأعد جوادك لتنطلق غداً إلى دمشق . . لتزور هبة الله . . عطارها الشهير . .

ياسر : إلى دمشق . . وهبة الله . . لماذا يا أبا الطيب ؟

أبو الطيب : هذا ما ستعرفه فى الغد فلا تعجل . . وهذا ما سيذوق وباله ديك الجن وسيكون عند قوله . .

ألا ليْتنا كنا جَميعين فى الهـوى
تضم علينا جنةٌ أو جَهنـمُ

ياسر : ولماذا تحشرنا معه فى جنة أو نار ؟ !

أبو الطيب : بل ستضمه جهنم وحده . .

السفر المشئوم :

ورد : يا عبد السلام . . أين أنت ؟

ديك الجن : هنا يا حبيبتى . . هنا يا ورد . . فى الشرفة .

ورد : فى الشرفة . . وفى هذا الوقت الباكر البارد يا عبد السلام وبلا دثار . . يقيك الطل والبرد .

ديك الجن : لا عليك يا حبيبتى . . إن روعة الشروق على روابى حمص لتملأ القلب دفئاً يذيب الصقيع .

ورد : وما الذى سلب من عيون حبيبى النوم . . وأيقظه فى الصباح الباكر ؟

ديك الجن : أتملّى حمصاً . . وبساتينها وقد غمرها الثلج وكساها برداء أبيض كقلبك الأبيض الشفيف . .

ورد : أترى ذلك حقًّا ؟ أم أن وحى قصيدة هبط على شاعرى فنفى النوم عن عيونه وأرقه .

ديك الجن : الاثنان معاً يا ورد . . عطر الصباح الذى كلل ربى حمص بأكاليل

الندى والشذى . . وذلك الوحى الذى نقى عنى الكرى . .

ورد : أما عطر الصباح . . أفلا يغنيك عنه هذا العطر المقدس الذى أهديتنى إياه ليلة عرسنا ؟ .

ديك الجن : بل أشم فيه عطر أنفاسى وأنفاسك وقد امتزجتا للأبد يا ورد . .

ورد : وأما الوحى فهو ميلاد قصيدة جديدة تضاف لخرائد عبد السلام ابن رغبان شاعر حمص العظيم .

ديك الجن : ما أرق قلبك يا ورد . . تغدقين على دواماً . . وتخدعين على ما لست أهلا له . .

ورد : عفواً يا شاعرى الحبيب . . لأنك أهل لكل ما هو عظيم . . ولتسمعنى قصيدتك الجديدة . . هيا . . هيا يا ديك الجن . .

ديك الجن : إليك عنى يا ورد . . لقد وهنت الأنفاس . . وزحفت السنون . . أما ترين إلى هذه التجاعيد تتخلل وجهى والعمر يقفز ويمضى . .

ورد : لا أرى إلا نضارة وألقاً . . وأرى روحاً مترنمة أبداً . .

ديك الجن : أو تسمعين ما قلته فى هذا يا ورد . .

ورد : وماذا قلت يا زوجى الحبيب ؟ !

ديك الجن : تَمَتَّعْ من الدنيا فإنكَ فانِ
وإنك فى يدىِ الحوادثِ عانِ
ولا تَنْظُرَنَّ اليومِ هواً إلى غدٍ
ومن لغدٍ من حادثٍ بأمانِ
فإنى رأيتُ الدهر يسرع بالفتى
وَينقُلُهُ حالَيْنِ يختلفانِ

فأما الذى يمضى فأحلامُ نائـــم
وأما الذى يبقى له . . فأمانـــى . .

ورد : حقًّا يا ديك الجن . . ما أروعك . . وما أعذب هذه النبرة الآسية التى تنكسب فى شعرك فتزيده حلاوة وصدقاً . . لِمَ تَأْسَى أيها الحبيب ؟

ديك الجن : تمنيت لو لقيتك قبل ذلك بالكثير . . وندمت على ما فات من العمر هباء دون لقائك وودت لو . . كنت فى شبابك و . . صباك .

ورد : فى شبابى . . وصباى . . ولك مالك من شباب وفتوة وعافية لا يملكها غيرك . .

ديك الجن : شباب . . ألا تعلمين أننى جاوزت حد الشباب يا ورد . . وأن الشعر الأبيض يلمع فى سواد الرأس كما يلمع السيف فى الظلام . .

ورد : أو تسمى هذه الشعرات المتناثرة شيباً ؟ أم خشى سيدى الحسد ويخاف العين على ما لديه من نعم . . ؟ إنك . . تلمح إلى شىء آخر ! ؟

ديك الجن : شىء آخر . . لم وما هو ؟ ماذا تقصدين يا ورد ؟ !

ورد : ما قصدت شيئاً . . يغضبك . . ولكنى أرى تغيراً أصابك هذه الأيام وأنزل بك جهامة وقلقاً . .

ديك : وما هو هذا التغيير الذى ترينه يا ورد ؟ !

ورد : أرى سحابة من الأسى تظلك . . ونبرة شجن تتسرب فى حديثك وأصبحت تلوذ بالصمت وتستطيب الأرق . . وتؤثر الوحدة .

ديك الجن : أصبت يا ورد . . فإنى أستشعر شيئاً ما يثقل على صدرى . . ربما تعب القلب لطول ما ركض وتوثب :

ويضحكُ سن المرءِ والقلبُ موجعٌ
ويرضى الفتى عن دهرهِ وهو عاتبُ
نزلنا على حكم الزمان وأمـره
وهل يقبل النصْفَ الألدُّ المُشاغِبُ ! ؟

ورد : وما الذى يوجع القلب يا ديك الجن ؟ ! وما الذى أرغمك الزمان عليه ؟

ديك الجن : ماذا تقصدين يا ورد ؟

ورد : أما قلت لك . . إنك تطوى الجوانح على ما لا تبوح به لى . .

ديك الجن : وماذا أخفيه عنك غير ما قلته لك . . إذا كان عندك أنت ما يقال . . فهات

ورد : لا . . ليس عندى . . ما يقال .

ديك الجن : بل قولى يا ورد . .

ورد : أراك تكثر الحديث عن الشباب . . وفوات الأيام ومواجع القلب . . لعلك . . أقصد . . ربما كنت . .

ديك الجن : قولى يا ورد . . ما الذى تخفين عنى . . أفصحى ؟ !

ورد : ربما كنت نادماً على ارتباطك بى لأننى لم أملأ حياتك بما تحب وترضى .

ديك الجن : وماذا أحب وأرضى أكثر مما أنا فيه .
وأكثر مما تمنحين لى من حنان وحب ورعاية...

ورد : أو هذا كل ما تمنحه المرأة للرجل يا ديك الجن ؟

ديك الجن : وماذا تمنح المرأة للرجل أكثر من ذلك . ؟

ورد : تمنحه الولد . . تقر به عينه ويخلد اسمه وها قد مرت الأيام ولم أحقق لك ما تحب وترغب . .

ديك الجن : لقد تلاعبت بك الظنون يا ورد . . وما ساورنى يوماً ما هذا الخاطر ولا له حزنت فأنت قرة العين . . وفرحة الدنيا والولد والأخ الحبيب . .

ورد : ما أنبلك يا عبد السلام وأكرم سجاياك . . تود أن تهون على . . ولا تَنْكأُ الجرح .

ديك الجن : أى جرح يا زوجتى الحبيبة ؟ ما قصدت شيئا مما دار فى خلدك وما تمنيت أكثر مما أنعم به الآن . . صدقينى :

لأنتِ المنى يا زَيْنَ كل مليحـةٍ
بل العيشُ يا زيْنَ النساءِ يطيبُ

ورد : لقد عيَّرك أبو الطيب البارحة بعدم إنجاب الولد فأثار كرامتى و . . .

ديك الجن : تقصدين أبا الخبيث . . إنه لا يود لى ولداً حتى يرث هو مالى ويقاسمك إياه . .

ورد : إننى أتوجس شرًّا من هذا الرجل يا ديك الجن . . إن حقده وجشعه لا حد لها وقد طردته شهر طردة . .

ديك الجن : وماذا يملك أن يفعل . . لطالما أغدقت عليه بلا جدوى . . إنه يود أن يرثنى حيًّا .

ورد : لقد لمحت وميض الغل يلمع فى عينه وهو يغادر الدار فيتوعدك ويهددك . .

ديك الجن : إنه لا يعدو تهديد الجبان :

زعم الفرزدقُ أن سيقتل مربْعاً
أبشر بطول سلامة يا مرْبعُ

ورد : وسيزداد حقده بعد أن شاع هجاؤك له بين الناس . . .

ديك : لعله يرتدع ويكف هو وياسر عن ملاحقته لى . . ولكن دعنا من هذه السيرة . وتأملى معى روعة الشروق وهو ينسكب ذهباً ودفئاً على مروج الشام . .

ورد : ولكن . . قل لى . . يا عبد السلام . . أبو الطيب لا يريد لك الولد . . وأنت ؟ ! ألا تريد ؟ !

ديك الجن : أعودة لهذا الحديث يا ورد . . وهل يريد حبيب شريكاً له فى حبيبته . . لا أريد سواك يا ورد . . سواك وحدك . . لا تفسدى هذا الصباح ، املئى صدرك بأنفاسه التى لم يلوثها غبار الأحياء بعد . .

ورد : بل أملأُ صدرى بأنفاسك التى امتزجت بهذا العطر المقدس . . فأشم فيه عطر بقائى . . أكاد أضن به كالبخيل . . وكأنه عصارة دمك . . ووهج أنفاسك . .

ديك الجن : إنه ليكاد يطغى على عبق المروج ويمتزج بنفحات الهواء . . انظرى يا ورد . . لكأن البستان بورده ورياحينه وطيوره فى مهرجان . .

ورد : وانظر إلى حبات الثلج وهى تساقط من جبين الأفق فترصع بساط

الخضرة بعقد من اللؤلؤ تغلفه قطرات المطر . .

ديك : صه . . أسمعت . . ما هذا الصوت — !

ورد : نعم سمعت . . انظر . . من . . إنه بكر . . .

ديك الجن : بكر . . إنه هو حقًّا . .
بكر . . يا بكر . . ما الذى أوقفك فى هذه الساعة تحت الثلج والمطر ؟ !

بكر : لا شىء يا سيدى . . لا شىء . . أرقت . . فالتمست أنسام الصباح وخلوة النفس عليها يخففان الأرق . .

ديك الجن : ترى ما الذى أوقفه هذه الساعة . . أهى . . دلال ؟ !

ورد : وما أدرانى . . إنه صديقك ونديمك . . وأنت به أدرى .

بكر : لم أحسبك مستيقظاً فى هذا الوقت المبكر . . فما الذى أرقك يا سيدى . . أهو الوحى ؟ أم ضيقك بما حدث من أبى الطيب الملعون . .

ديك الجن : بل قل لى أنت ؟ ما الذى سرق النوم من عيونك يا بكر ؟ أهو العشق يا فتى ؟

ورد : لم يطل ليلى . . ولكن لم أنم . .

ديك الجن : أما قلت لك إنه عاشق ولكنه يكابر ويأبى أن يبوح لدلال . .

ورد : ودلال المسكينة تعانى ولا تجد حيلة . . لقد وعدتها أن تكون لبكر وكنت أنوى أن أحدثك فى هذا . .

ديك الجن : ولقد وعدت بكراً بذلك وكنت أنوى تدبيرالأمر . .
اسمع يا بكر . . لقد عرضت عليك أن أزوجك دلالا التى تحبك

ونحبها وإن أنكرت . وسأبنى لكما داراً فى بستانى لتكونا قريبين منى دائماً . .

بكر : ولكننى يا سيدى . . لم . . أقصد . . .

ورد : اسمعا . . ترى من الطارق المُلح فى هذا الصباح الباكر ؟

دلال : من ؟ ! من الطارق ؟ !

صوت : أريد سيدى ديك الجن لرسالة عاجلة . .

ديك الجن : أنا عبد السلام بن رغبان . . وأنت . . عجّل بما وراءك ماذا تريد ؟ !

– صديقك الحميم جعفر بن على الهاشمى يحتضر ويطلب أن يراك فوراً .

ديك الجن : جعفر . . صديقى الحبيب على فراش الموت . .

– ولقد قطعت الطريق طوال الليل من السلمية إلى هنا لعلك تلحق به .

ديك الجن : أسرجوا جوادى وأعدوا لى عدة السفر . . وأنت يا بكر . . لتكن إلى جوار زوجتى وفى خدمتها حتى أعود . .

وأنت يا دلال . . لا تفارق سيدتك ولا تشعريها بوحشة . . .

دلال : سمعاً وطاعة . . الجواد معد يا سيدى . .

ورد : رافقتك السلامة يا ديك الجن . .

ديك الجن : لن أغيب كثيراً يا ورد . . أستودعك الله . .

قارورة عطر :

أبو الطيب : وأخيراً عدنا . . عدنا لنبدأ العمل فقد تم التدبير ولم يبق إلا التنفيذ .

ياسر : قاتلنى الله لو كنت أفهم شيئاً . . أى تدبير وأى تنفيذ يا رجل ؟ !

أبو الطيب : تنفيذ المؤامرة . . والانتقام من ديك الجن . .

ياسر : مازلت أدور فى نفس الحلقة ولا أظفر بما يريح عقلى . . فمنذ خرجت معك إلى حانوت هبة الله . . حتى عدت . . وأنا لا أفهم شيئاً .

أبو الطيب : أو لم تفهم بعد أيها الغبى ؟ !

ياسر : والله ما أغباك يا أبا الطيب . . تدفع كل هذا المال فى زجاجة . . حقيرة . . وتأتى بعد ذلك على ما ادخرناه . .

أبو الطيب : يا أحمق . . أتسميها زجاجة حقيرة . . ألا تفهم . . ؟

ياسر : آه . . قارورة العطر . . التى حدثتنى عنها . .

أبو الطيب : بل قارورة سم . .

ياسر : قارورة سم : أتنوى أن تدس السم لديك الجن ؟

أبو الطيب : اصغ لى . . ألم أحدثك عن قارورة عطر . ستكون سلاحنا فى المؤامرة . .

ياسر : نعم . . حدثتنى عنها . . وحدثتنى أيضاً عن مهمة أخرى . .

أبو الطيب : أما المهمة الأخرى فقد أنجزناها بذهابنا إلى هبة الله وشراء العطر منه . .

ياسر : بل قل بدفع ثروتنا فيه . . ومع ذلك لم أفهم شيئاً بعد . .

أبو الطيب : سأوضح لك كل شيء . . أخبرنى هبة الله أن ديك الجن ابتاع منه قارورة عطر زاعماً أنه لا مثيل لها ولا يعرف سر تراكيبها إلا العطار العجوز . .

ياسر : ولقد أهداها ديك الجن لعروسه ليلة زفافها بعد أن دفع فيها ذهباً كثيراً .

أبو الطيب : ولقد دفعنا ذهبا أكثر . . فى قارورة من نفس النوع . . لتكون سلاحنا فى المؤامرة ولنضمن سكوت العجوز البخيل . .

ياسر : ولماذا تنفق هذا المال وأنت ناقم على إسراف ديك الجن .

أبو الطيب : لأنا بذلك سنكيد له . . فأنت تعلم مبلغ غيرته على ورد وولعه بها . . برغم أنها لم تنجب له . .

ياسر : ولماذا تريد له البنين . . ونحن ورثته بلا بنين ؟ !

أبو الطيب : وتعلم مبلغ تعقده من النساء منذ تربى فى كنف جدته العجوز التى سممت وجدانه بقصص النساء وغدرهن .

ياسر : لقد أرادت بذلك أن تصون ماله بصده عن النساء . .

أبو الطيب : وتعلم كذلك إيثاره لبكر . .

ياسر : أعلم كل ذلك . . ولا أرى له علاقة بقارورة العطر ولا بما خسرنا فيها من مال .

أبو الطيب : من هنا تبدأ المؤامرة . . توقظ العقدة القديمة فى أعماق ديك الجن نوهمه أن زوجته تخونه . .

ياسر : ورد تخونه . . أجننت مع من ؟ !

أبو الطيب : مع صديقه الأثير والوحيد . .

ياسر : مع بكر؟ كيف ؟

أبو الطيب : بقارورة عطر . . ندفع بزجاجتنا هذه إلى بكر فيفوح منه نفس العطر الذى يفوح من ورد . .

ياسر : هيه . . وبعد ؟ !

أبو الطيب : ونشيع أن بين الاثنين علاقة خفية . . ونطلق الإشاعة حتى تسرى فى الشام كلها . . لا فى حمص . . وحتى يتغنى بها الصبية ويلغط الرجال . .

ياسر : ثم ماذا ؟ !

أبو الطيب : ستصل الإشاعة لديك الجن . . وتطفو أحاديث جدته القديمة فتدب فيه الغيرة . . وخاصة أنه جاوز الشباب . . وبكر فى ميعة الصبا .

ياسر : ولكنه سيتحرى الأمر . . ويكتشف كذبنا . . وينكل بنا . .

أبو الطيب : لن يتحرى شيئاً فأنا أدرى بابن العم . . وسيطير لبه حين يشم عطر زوجته الذى يتوهم أنه لا مثيل له وأنه اشترى سر تركيبه يشمه . . فى ثياب بكر وفى فراشه أيضاً .

ياسر : فيشم بذلك رائحة الخيانة . . ويندفع كالثور . . ويقضى على الاثنين . .

أبو الطيب : ويذهب ديك الجن إلى الجحيم وحده . . ويخلو لنا الجو . . ونشفى غليل الانتقام منه . . ومن هجائه .

ياسر : ولكن ثمة ثغرة فى المؤامرة . .

أبو الطيب : أتعنى أن يغيب ديك الجن عن داره ليلة أو ليلتين ويعود ليفاجأ بالإشاعة . . والعطر . . .

ياسر : نعم هذا ما قصدت . .

أبو الطيب : لقد دبر القدر لنا ذلك يا ياسر .

ياسر : كيف ؟ !

أبو الطيب : إن جعفر بن على الهاشمى صديق ابن رغبان يحتضر وقد أرسل فى طلبه فطار إلى السلمية . .

ياسر : ومن أنبأك بذلك ؟

أبو الطيب : أو تحسبنى نائماً . . إن لى عيناً لا تغفل تحاصر دار ديك الجن . . وتتلصص بين جدرانه أيضاً . .

ياسر : ولكن . . لم تقل لى كيف يصل العطر إلى بكر ؟ !

أبو الطيب : إنها مهمتك . . فأنت تعرف حبه للعطر . . وهو صديقك القديم وسهل أن تترضاه وتهديه إياه بمناسبة عرسه . .

ياسر : عرسه . . ماذا تعنى ؟ !

أبو الطيب : لقد وعده ديك الجن قبل سفره بأنه سيزوجه دلالا . .

ياسر : يا لك من داهية . . يا أبا الطيب . . .

أبو الطيب : اذهب أنت . . والتمس سبيلا إلى بكر . .

* * *

دلال : ويلى من جعفر الهاشمى . . أما كان ينتظر قليلا حتى أزف لبكر .

ورد : أو هكذا أضر بك الوجدُ يا دلال . . أما من صبر ؟

دلال : ألست ترى الضنَى لم يُبقِ منى
سوى شبحٍ يطيرُ بكل ريحِ . .

ورد : ذكرتنى بزوجى الحبيب عبد السلام يا دلال . . كأن دهراً مر منذ رحل عنا .

دلال : أليلتان تصبحان دهراً يا سيدتى . . أعاده الله سالماً . . حتى تقر عينك .

ورد : وتقر عينك كذلك . . فيجتمع شملك على بكر . .

دلال : لطالما اشتقت أن أظفر بذلك الفتى الذى كلما ازددت منه قرباً زاد بعداً . ودلالا .

ورد : أدلالا . . على دلال . ؟

دلال : لعله يتيه بجماله ووسامته وحبه للعطر والتأنق .

ورد : أو تقلين عنه جمالا وفتنة وملاحة يا دلال . .

دلال : لقد استعنت عليه بكل شىء حتى بالشعر . . فما لان قلبه مع علمى بأنه يكن لى الحب ويأبى البوح . .

ورد : بالشعر ؟ ! أتنافسين ديك الجن يا شاعرة ؟ !

دلال : وكيف لى ؟ إنه سيدى الذى كتب على لسانى شعراً فى بكر عله يحرك كوامنه . . ودفعت بالرقعة إليه فما حرك ساكناً . . .

ورد : وماذا قلت فى بكر . أقصد ماذا قال سيدك عن لسانك ؟

دلال : دع البدر فليغرُبْ فأنتَ لنا بـدرُ
إذا ما تجلى من محاسنكَ الفَجـرُ
وإما انقضى سحرُ الذينَ ببابـلٍ
فطرفُكَ لى سِحرٌ . . وريقُكَ لى خمـرُ

ولو قيلَ لى قمْ فادعُ أحسنَ من ترى
لصحتُ بأعلى الصوتِ . يا بكرُ . : يا بكرْ

* * *

ياسر : يا بكر . . يا بكر . . ما تسمعنى .

بكر : من ؟ ياسر . . ماذا وراءك . .

ياسر : أهكذا تلقانى . . يا أوفى الأصدقاء . .

بكر : أو تريد أن أعانقك . . ألا تستحى مما صنعته أنت وأبو الطيب فى دار ديك الجن .

ياسر : وهذا جئت إليك . . لأوضح لك الأمر فلا يد لى فيه . .

بكر : أتزعم ذلك ؟ ولقد كِنْتَ السباب لديك الجن جنباً إلى جنب مع أبى الخبيث .

ياسر : صدقت والله . . أبو الخبيث . . وصدق شاعرنا حين وصفه فقال . .

يا عجباً من أبى الخبيثِ ومن سروجهِ فى البكاثرِ الدثرِ

بكر : أو أنت الذى يقول ذلك عن صاحبه . . ما الذى دهاك يا ياسر ؟ !

ياسر : أقسم لك . . أننى أرغمت على ما بدر منى . . فقد أغرانى أبو الطيب . . أقصد . . أبو الخبيث . . وأثارنى عليك وعلى ديك الجن . . وما . .

بكر : أو أنت غِر حتى يُسخرك غيرك ويوجهك كالدمية ؟ !

ياسر : والله غر وساذج يا بكر . . وكيف لا أنساق ولأبى الخبيث قدرته

على إثارة الخواطر وماكدت أستبين الحق . . حتى هرعت إليك لأعتذر . . .

بكر : إن حيلك لا تَنْطلِى على . . فاكشف عما تريد . .

ياسر : صدقنى يا بكر . . إننى . . لا أحتال . . وهل أقوى على ذلك وأنت صديق الصبا ورفيق الشباب . .

بكر : كان ذلك . . قبل أن تعلن عداءك لديك الجن . . أما الآن فهيهات فقل لى لماذا تلاحقنى . . وماذا تريد ؟ !

ياسر : أريد أن أثبت لك براءتى وأعتذر عما فعلت . . وأعاهدك ألا أنصاع مرة أخرى لأبى . . . الخبيث وسأعلن قطيعتى له . .

بكر : لعلك خفت بعد أن سرت قصيدة ديك الجن فى صاحبك أن ينالك منه الأذى ومرارة الهجاء .

ياسر : رفقاً . . يا بكر . . إننى لا أجرؤ على الظهور فى الطرقات بعد ذيوع قصيدة ديك الجن فما بالك بمن رُمى بها . .

بكر : ما كان أغناك . . يا ياسر وما كان أغنى صاحبك . ولكنه المال أغراكما بالنيل من ديك الجن . . والخوض فى سيرته . .

ياسر : أما المال . . فماله . . هو حرفيه . . وأما النيل منه فأندم عليه . . وأما الخوض فى سيرته فهذا ما لم يكن قط . . .

بكر : لم يكن قط . . أتكذب وتريد أن أقبل صدق اعتذارك ؟

ياسر : أقسم لك . . ما كذبت وإننى أصدقك التوبة والندم وما أهشت وراءك إلا لهذا . .

بكر : أو لم يروج صاحبك بين الناس أن ديك الجن مارق زنديق وأن

شعره يدينه حين قال :

أأترك لذةَ الصَهْبـاءِ عَمْداً
لما وعدوهُ من لبنٍ وخمْـرِ

ياسر : و . . وما ذنبي فى هذا ؟ ! أتحملنى جريرة ما لم أرتكب . .

بكر : أوتحسبنى غافلا عما تشيعونه فى الحوانيت والأزقة ؟ وترددونه من شعر ديك الجن ؟

ياسر : لا . . يا بكر لم أردد شيئا وإنما ردده هو . . و . . واعترف لك بما قلت . قلت :

عفَرت خَدّى فى الثرى لك طائعاً
وعزمت فيك على دخولِ النـارِ . .

بكر : أفى هذا خروج يرمى به ؟
أيها الغبى . . مالك والشعر حتى تتصدى له .

ياسر : ومن قال إنه خروج ؟ لقد رويته على أنه غزل . . نعم غزل رفيع فأنا كما تعلم لا أروى سوى شعر ديك الجن . . ألم يقل قبله :

لما نظرت إلىَّ عن حَدَقِ المهـا
وبسمت عن متفتح النـوَّارِ
وعقدت بين قَضيبِ بانٍ أهيـفٍ
وكثيب رملٍ عُقْدةَ الزنـارِ
عفرت خدّى فى الثرى لك طائعـاً
وعزمتُ فيك على دخولِ النارِ

ياسر : هذا غزل لا يعرفه إلا رواد عبقر من أمثال ديك الجن . . .

بكر : لعلك تصدق هذه المرة يا ياسر . .

ياسر : وكيف لا أكون صادقاً وها أنا قد جئت أسترضيك وأرجو منك أن تتوسل لى عند ديك الجن لأسترضيه . .

بكر : لقد سافر ديك الجن إلى السلمية ليعود صديقه جعفر وعند عودته سأمهد لك الطريق لذلك . .

ياسر : مازلت نعم الصديق يا بكر . . آه . . وحتى تصدق حسن نيتى جئت لك بهدية . . .

بكر : هدية ؟ ! وما المناسبة ؟

ياسر : وهل هناك مناسبة أعظم من هاتين : صفحك عنى . . ونبأ زواجك بدلال . .

بكر : زواجى بدلال . . هذا شىء لم يبت فيه بعد . .

ياسر : أوتحسب ذلك خافياً وحمص كلها تتحدث به . . وماكدت أعلم حتى طرت لأقدم لك هذه الهدية عربونا للحب والصفاء . .

بكر : زجاجة عطر . . .

ياسر : عطر نفيس . . فأنا أعلم ولعك بالطيب والعطر وأنك لا تقتنى إلا النفيس منه . .

بكر : ولم هذا السخاء المفاجئ . . الذى هبط عليك فجأة وأنت . . أنت . .

ياسر : مغلول اليد . قلها يا بكر . . وهل أغل يدى عن أوفى الأصدقاء؟

كأسان من رماد

ديك الجن : على هذه كانت تدور النوائبُ
وفى كل جمع للذهابِ مذاهبُ
ألا أيها الركْبان والرد واجبٌ
قفوا حدثونا ما تقول النوادبُ

دلال : سيدتى . . سيدتى لقد عاد ديك الجن . .

ورد : عاد عبد السلام . . أين ؟ هيا . . هيا بنا للقائه يا دلال . . .

دلال : لم يصل الدار بعد ولكن بكراً فحه يجتاز السوق بجواده فهرول ليكون فى استقباله . .

ورد : خبرينى يا دلال . . أسعيد أم حزين ؟ أيبدو عليه إرهاق الرحلة ؟ .

دلال : يقول بكر . . إن به كآبة . . وكأنه يغمغم بشئ . . .

ورد : كآبة . . يغمغم بشىء : أمات صاحبه الحبيب جعفر ؟ أم لقى فى رحلته ما يكره . . وبأى شىء كان يغمغم يا دلال ؟ !

ديك الجن : بكاك أخ لم تحوِهِ بقرابةِ
بلى إن إخوان الصفاءِ أقاربُ
وأظلمت الدنيا التى كنتَ جارها
كأنك للدنيا أخٌ ومناسبُ
أخاً . . كنت أبكيهِ دماً وهو حاضر
حذاراً . . وتعمى مُقْلتى وهو غائبُ

أصوات : هذا ديك الجن . . ما الذى اعتراه . .

وينشد شعراً .

لعله سمع بالقصة فهزته الفجيعة .

ديك الجن : السلام عليكم ورحمة الله . .

صوت : و . . وعليك السلام . .

صوت : ما الذى يثقل قلب الشاعر . . ويشيع الأسى فى صوته . .

صوت : بل يشيع الدموع فى عينيه . .

ديك الجن : لقد مات جعفر الهاشمى . . وهو كما تعلمون نعم الأخ والصديق فما ملكت نفسى من بكائه ورثائه . .

صوت : رحم الله جعفراً . . فما أندر الأصدقاء الأوفياء . .

صوت : حسبناك تبكى لشىء آخر يا ديك الجن ؟

ديك الجن : وهل هناك شىء آخر يستحق البكاء بعد فقد صديق جعفر ؟ .

صوت : رحم الله من قال :

ستُبْدِى لك الأيام ماكنت جاهلا
ويأتيك بالأنباءِ من لم تزوَّدِ

ديك الجن : الأيام . . والأنباء . . أى شىء ستبديه لى الأيام بعد ؟ بماذا تهرف يا رجل . هيا فما عاد بى جلد على شىء بعد فجيعتى فى جعفر .

أطفال : يُحكى أنْ . .
ديكُ الجنْ . .
سوف يُجنْ . .
يحكى أنْ . .
وردٌ خانتْ . .

ديكَ الجنْ . . ورد خانت ديك الجن . .

ديك الجن : ورد خانت ديك الجن . . ورد خانت ديك الجن . . ويلى ماذا . . ويحى صه أيها المناكيد . . ماذا تقولون ؟ تفرقوا وإلا دهستكم بسنابك جوادى . . يحكى أن . . ديك الجن . . سوف يجن : أيقظان أنا أم نائم ؟ ! ما الذى جرى ؟ أليلة أغيبها يلوك فيها الصغار شرفى . . والله لو حدث فلن يشفى غليلى سوى سيفى انطق أيها الجواد فإننى لا أطيق صبراً . .

ورد : عجلى يا دلال . . ساعدينى على زينتى حتى ألقى حبيبى فى أجمل صورة . .

دلال : انظرى إلى المرآة . . والله لم تكونى أبهى منك ولا أجمل مثلما أنت اليوم كأنك العروس ليلة جلوتها . . وكأنها ليلة عرس ثانية وما أصدق من وصفك وشبهك . .

ورد : من هو ؟ وماذا قال يا دلال . .

دلال : أما هو . . فلمن له تتزينين وتتجملين . . . . وأما ما قال فلا أظنك نسيته . .

لا ومكانِ الصليبِ فى النحرِ منك . .
ومجرى الـزُّنـارِ فى الـخَصْـرِ
والخال فى الخد إذ أشبهُ
وردة مسكٍ على ثَرَى تِبْرِ
وأقـحوان بـفـيكِ مُـنـتـظِـمٌ
على شبيهِ الغدير مِن خمْرِ

. ما أصْبَر الشوق بى فأَصْبَرنـــا
من حَسُنتْ فيه قِلةُ الصـبرِ

ورد : ولقد صبرنا على غيابه ليالى كأنها لطول شوقنا دهور . . أسرعى يا دلال وناوليني ذلك الوشاح الأحمر فما أحبه إلى قلبه وشعره ولا تنسى العطر . . عطره المقدس يا دلال . .

ديك الجن : أغافون بعد . . والضحى قد غمر وجه الأرض . . أين هم ؟ بكر . . بكر . . أين أنت يا بكر ؟ !

بكر : لبيك يا سيدى . . وأهلا بك وبعودتك سالماً . . .

ديك : بكر . . ما الذى أوقفك هكذا فى الصباح . . أين كنت ؟ !

بكر : كنت فى المدينة فلمحت جوادك . . وسبقتك إلى هنا لأكون فى استقبالك . .

ديك الجن : أو كنت فى المدينة حقًّا ؟ !

بكر : نعم . . وقد لقيت ياسراً وسرنا نتحدث و . . .

ديك : لقيت ياسراً . . وأنت تعلم غضبى عليه . .

بكر : لقد تعقبنى . . وطاردنى . . لأمهد له الطريق لتصفح عنه وأعلن لى توبته . .

ديك الجن : أصفح عنه . . أتتعامل مع أعدائى إذن . .

بكر : معاذ الله يا سيدى . . ولكن . .

ديك الجن : إذن سمعت ما تلهج به المدينة ؟

بكر : أتقصد ما يقولونه عليك من كفر وإلحاد . . وما يرددونه من شعرك فى هذا . .

ديك الجن : ما إلى ذلك قصدت . . وإنما قصدت ما هو أدهى وأمر . .

بكر : أدهى وأمر . . إنك تنتفض ثورة وغضباً . . أهو موت جعفر ؟

ديك : تلك وجيعة يجوز فيها التجلد . . أما فجيعتى التى أقصدها فلا يجوز فيها تجلد ولا صبر . . .

بكر : أو فجيعة أخرى أيها الصديق . . ألا استرحت أولا . . دعنى أساندك وندخل الدار فإنك لتكاد . . تتهاوى . .

ديك الجن : ما هذا . . اقترب . . اقترب أكثر يا بكر . . دعنى أشمك . . . ما هذا العطر الذى ينبعث منك ؟ إنه عطرها . . العطر المقدس . . عطر لا يعرف عبقه إلا اثنان هى . . وأنا . . إذن صدق الصبية . . والرجال . . وردٌ خانت ديكَ الجنْ . . يُحكى أنْ . . يحكى أنْ . .

بكر : سيدى . . ماذا دهاك ؟ عما تتحدث ؟ أى عطر . . أية خيانة ؟

ديك الجن : عطر هبة الله الغادر الثمين . . عطر ورد وهدية عرسها . . إن حمصاً كلها تتحدث بذلك . .

بكر : صبراً يا ديك الجن . . أستحلفك بالله أن تصغى إلى . . سأشرح لك . . اسمع منى . . .

ديك الجن : ستشرح ماذا أيها الصديق الوفى . . العطر يفوح برائحة الخيانة ووقفتك المريبة فى البستان تشى بكل شىء . . .

بكر : لقد . . كنت . . أجمع بعض الورود لك لأزين بها مائدة صبوحك يا . . .

ديك : وحين دهمتك واقفاً تحت الثلج والمطر قبل ذلك . . أكنت تجمع

الورود والرياحين ؟ !

بكر : سيدى إن ثمة مؤامرة هناك . . رحماك . . نَحِّ هذا السيف يا ديك الجن . . إنها مؤامرة . . مؤا . . مرة . .

ديك الجن : نعم هى مؤامرة منك . . ومنها . . خذها أيها الخائن . . خذها من سيفى فلن يشفى غليلى إلاه . . طعنة فى صدرك والأخرى فى صدرها . . أين هى . . أين ورد ؟ أين الخائنة ؟

أيها القلب لا تعُدْ لهوى البيض ثانية
ليس برقٌ يكون أخلبَ من برقِ غانية
خنتِ سرى ولم أخُنْكِ فموتى علانية
ليس برق يكون أخلب من برق غانية
خنت سرى . . ولم أخنك فموتى علانيـة ! ؟

دلال : أية غانية ؟ وأية خيانة . . ؟ ماذا حدث . . أى شىء دهى سيدى ؟

ورد : دلال . . دلال . . ماذا يجرى هناك . . ما هذا الهرج . . وما هذا الصراخ ؟

ديك الجن : أتريدين معرفة ما يجرى هناك أيتها الخائنة . . لتعلمى قبل أن أقتلك . .

ورد : تقتلنى يا ديك الجن . . عبد السلام ما الذى دهاك . ؟ ولماذا يقطر سيفك دما . . ؟ ويلى . . أى مصيبة تحدث . .

ديك : أقتلك شر قتلة . . أمزج دمك بدمه . . وأثأر لشرفى الذى أهدر !

ورد : تمزج دمى بدمه ولتثأر لشرفك . . عفوك يا ديك الجن ماذا تعنى ؟

ديك : أمزج دمك بدم عشيقك أيتها الغادرة . . عشيقك بكر . . إن هذا الدم الذى يقطر من سيفى دمه . . كما أن هذا العطر الذى يفوح منك ومنه هو عطرى . . عطرى المقدس . .

ورد : ديك الجن . . لقد خدعوك . . أصغ لى . . يا عبد السلام . . إننى أتوسل إليك . .

ديك الجن : لم يخدعنى إلا أنت . . ليتنى أصغيت لجدتى . . وطالما حدثتنى عن غدركن . . خذيها قاتلة قاضية . . الأولى له ولك الثانية . .

قلْ لمنْ كانَ وجهُهُ كضياء
الشمسِ فى حُسْنِهِ وبدرٍ مُنيرِ
كنتِ زينَ الأحياءِ إذ كنتِ فيهم
ثم قد صرتِ زيْنَ أهلِ القبُورِ
بأبى أنتِ فى الحياة وفى
الموت وتحت الثرَى ويومِ النُشورِ
خُنْتنى فى المغيب والخَوْنُ نُكر
وذميمٌ فى سالفاتِ العصـــورِ

دلال : خنتنى . . خنتنى . . من هى يا سيدى . . . من ؟ ! سيدتى ؟ ورد . . وامصيبتاه . . وامصيبتاه . .أقتلتها . . سيدتى . . سيدتى . .

ديك الجن : نعم قتلتها . بعد أن لهجت المدينة بخيانتها . ألم يأتك النبأ أم تتسترين عليها ؟ !

دلال : أى نبأ . . وأى تستر يا سيدى ؟ أو تقتل ورداً بيديك ! ؟

وامصيبتاه . . أتقتل أنقى النساء وأوفاهن ؟ . . أو سيفك هذا المخضب بدمها . ! ؟

ديك الجن : لقد خدعت مثلى يا دلال . . لم تكن إلا خائنة . .

دلال : ورد خائنة . . واسيدتاه . . أكنت تتزينين لعرس موتك . . وسيف قاتلك ؟

ديك الجن : بل كانت تتزين لحبيبها . . لعشيقها الذى لم يرع حرمة صداقة ولا وفاء

دلال : عشيقها . . من ؟ ماذا تقصد يا سيدى ؟ !

ديك الجن : ومن غيره ؟ . . إن حمْصا تتحدث كلها به وبها . . إنه بكر .

دلال : بكر . بكر . صديقك الوفى . .

ديك الجن : ولقد نال جزاءه . . فأعملت سيفى فيه وتركت جثته طريحة البستان . .

دلال : نال جزاءه . . أقتلت بكراً ؟ أقتلت حبيبى ؟ ! وابكراه . . واحبيباه . . واسيدتاه . .

ديك الجن : كفى . . كفى . . وإلا قتلتك . .

دلال : اقتلنى إذن . . فما قيمة الحياة بعد فقدان حبيبى . . هيا أغمد سيفك فى صدرى يا سيدى الشجاع . . أعمتك الغيرة ولم تبق على شىء . .

ديك الجن : لم تعمنى الغيرة . . وإنما رأيت بعينى . . وسمعت بأذنى . . وشممت بأنفى . .

دلال : أو تقتل أوفى اثنين روحاً بريئة تنتظر أوبتك بفارغ صبر . . وصديقاً

وفيا يستعد لاستقبالك ثم تبكى . . ويلى . . .

ديك الجن : ويعذلنى السفيه على بكائى
كأنى مُبتلى بالخزن وحدى
يقول قتلتَها . . سفهاً وجهلا
وتبكيها بكاءً ليس يجدى
كذبّاحِ الطيورِ له بكاءٌ
عليها وهو يذبحها بحدّ

دلال : يالحبيبى . . وبالسيدتى . . ماذا رأيت يا سيدى وماذا شممت حتى تصنع ما صنعت ؟

ديك الجن : رأيت بكراً غير مرة يتلصص تحت شرفة غرفة ورد فى الثلج والمطر . . . و . .

دلال : وهل تمنع عاشقاً أن يأرق ويلتمس التجوال والخلوة . .

ديك الجن : إذن تقرين بعشقه ؟ !

دلال : أقر . . نعم أقر بعشقه لى . . لى أنا وإن لم يبح واحبياه . .

ديك الجن : وشممت العطر . . العطر النادر المقدس يفوح من ثياب بكر . .

دلال : ويلى . . اقتلنى إذن يا سيدى فأنا الجانية . .

ديك الجن : الجانية . . كيف يا دلال ؟ !

دلال : أنا التى سرقت بعض العطر من قارورة سيدتى لأسترضى به بكراً .

ديك الجن : سرقت العطر ؟ وكيف إذن تتحدث حمص كلها عن علاقة مريبة بين ورد وبكر . . كيف ؟ !

دلال : أقسم لك أن يكراً ما غاب عن نظرى طيلة غيبتك . . ولم أشهد عليه . . ولا على سيدتى ريبة أوغدراً . . غدراً . . وإن لم تصدقنى فاذهب إلى حجرة بكر لترى بنفسك . .

ديك الجن : هلمى . . يادلال . . هلمى إلى فراش بكر لنرى . . ألا تشمين العطر يفوح من فراشه حيث . . حيث كان يلتقى الخائنان . .

دلال : لقد نثرت قطرات منه بيدى على فراشه عله يرضى فأنت تعرف ولعه بالعطر والطيب . .
عمّ تبحث يا سيدى ؟ !

ديك الجن : أبحث عما يصلح دليلا على خيانتهما . . هيه . . ها هو الدليل قارورة العطر . . هاك . . أوتكذبين . . وتدعين أنك سرقت العطر كيف إذن حصل على القارورة كلها . .

دلال : رويدك يا سيدى . . انظر إن القارورة لم تفتح بعد . . كيف تكون مغلقة كاملة وسيدتى تتعطر منها ؟ !

ديك الجن : حقًّا . . يا دلال . . إن القارورة لم تفض بعد . . كيف إذن ما حدث ؟ ! أى لغز يعقد الأمور ؟ !

دلال : ألم أقل لك يا سيدى . . إننى اليوم فقط عطرت سيدتى من زجاجتها وهى تتهيأ لاستقبالك . . لاستقبال الموت . .

ديك الجن : أتعنين أن زجاجة سيدتك التى تستعملها فى حجرتها . . فلنر إذن . .

دلال : لا يا سيدى . . ها هى ذى الزجاجة على منضدة زينتها . .

ديك الجن : عجباً . . إنها نفس الزجاجة ؟ أى كارثة حلت وأى لغز . . زجاجة عطر كاملة فى غرفة بكر . . وزجاجة عطر ناقصة فى غرفة ورد . .

دلال : يا شؤمه من عطر ؟ بل قل سمًّا . . سمًّا قضى على أحب اثنين على بكر . . بكر حبيبى وعلى سيدتى ورد . .

ديك الجن : خبرينى يا ورد . . أما رأيت خلال غيبتى أحداً يتصل ببكر ؟

دلال : أحد يتصل ببكر . . نعم رأيت أبا الطيب يحوم حول القصر طيلة غيبتك . . و . . .

ديك الجن : هيه . . ألم يحادثه ؟

دلال : لا . . وإنما لمحت ياسراً يحادثه ويحاوره . . ويغيبان معاً فى سوق المدينة .

ديك الجن : وأبو الطيب . . ألم يكن معهما ؟ !

دلال : لا . . وإنما رأيته يجد فى أثرهما . . ويتعقبهما . .

ديك الجن : إذن فعلها الأشرار . . صدق أبو الخبيث وعده ووعيده وصدق إحساس ورد وتوجسها منه . . يا ويلتاه . . لكأنها تقرأ الغيب ليلة حذرتنى منه . .

دلال : أتعنى أن ياسراً أهدى بكراً عطرا من نفس النوع . . و . . .

ديك الجن : وأن أبا الطيب الخبيث جلبها من هبة الله فهما على مودة وجشع مشترك . .

دلال : فلنبادرهما يا سيدى قبل أن يفلتا . . فهما أحق بسيفك وانتقامك . .

ديك الجن : وما جدوى الانتقام بعد ! لقد سبق السيف العزل يا ورد وقتلت بيدىّ هاتين ورداً . . حبيبتى . . وبكراً صديقى . .

قمر أنا استخرجتُهُ من دُجْنِهِ
لبليتى وجلوتهُ من خِدْرِهِ
وقتلته وله علىَّ كرامةٌ
ملءَ الحشا وله الفؤادُ بأسرِهِ
عهدى به ميْتاً كأحسن نائمٍ
والحزن يسفح عبرتى فى نحْرِه
لو كان يدرى الميْتُ ماذا بعدهُ
بالحى . . حلَّ مكانه فى قَبرِهِ
غُصصٌ تكاد تفيضُ منها نفسُهُ
وتكاد تُخرجُ قلبه من صَدْرِهِ

دلال : أو ستظل تبكى وتنشد الشعر هكذا بلا جدوى . . قم يا سيدى لتنتقم ممن دبروا لنا هذه المؤامرة . . وحرموك الحبيبة وحرمونى الحبيب . . فلن يذهب دمها هدراً . .

ديك الجن : أو ألوث سيفى بدمها . . بعد أن سال عليه دم أغلى اثنين ؟ والله لن أنتقم إلا من نفسى . .

دلال : تنتقم من نفسك ؟ كيف ؟ . .

ديك : سأدفع الثمن غالياً . . سأكفر عن أبشع جريمة ارتكبها آدمى . سأدفع ثمنها من دمى . . وعمرى . .

دلال : أو تقتل نفسك يا سيدى ؟ !

ديك الجن : أقتلها ؟ . . أقتلها لأستريح وتستريح . . لا والله يا دلال بل لتظل إلى الأبد معذبة وتطاردها الأشباح . . وتلاحقها اللعنة . .

دلال : والدم المراق يا سيدى ؟ والمدينة التى تلغط بشرفك . . أما تعلن للناس الحقيقة ؟ !

ديك الجن : الحقيقة . . لا أعرف إلا حقيقة واحدة . . هى أننى فقدت ورداً . . وبكراً وسيعلم الناس كل شىء . . حسبى . . أنا من أعلمه يا دلال . .

دلال : وأنا ماذا بقى لى وكيف تطيب لى الحياة بعدهما . . أعطنى سيفك هذا لأغمده فى صدرى وأستريح . .

ديك الجن : لا لتعيشى أنت يا دلال . . وإنى لأهبك قصرى وبستانى وماشئت من مال . . عزاء عن فقدك حبيبك وإن جل العزاء . .

دلال : وما حاجتى إلى القصر . . والبستان ؟ وأى شىء يعدل فقد الحبيب ؟

ديك الجن : لتعيشى أنت يا دلال . . لتروى للناس والتاريخ مأساة ديك الجن . . قولى لهم . . إنه لوث يديه بأبشع جرم . . قولى لهم إن الأرض لم تَمِدْ بعد . . . وإن السماء لم تنطبق عليه وإن البراكين لم تجرفه . . وتنقض عليه الصواعق .

دلال : أستحلفك بالله يا سيدى . . إلا كففت ؟ ألا تدبرت معى أمر الجثتين ؟

ديك الجن : قولى لهم . . إنه انتقم لنفسه أروع انتقام . . وأنه صنع من رماد الجثتين . . جثة حبيبته وجثة صاحبه . .

دلال : رفقاً يا سيدى . . أما كفاك قتلها لتحرق الجسدين . . أما . .

ديك الجن : وأنه صنع من رماد الجثتين . . كأسين رماديتين . . كأساً لورد . . وكأساً لبكر . .

دلال : رباه . . لقد جُن . . أفق يا ابن رغبان لا تشعل النار فى الأموات . .

ديك الجن : وأننى من هاتين الكأسين سأتجرع خمر المرارة والعذاب حتى لا أفيق . .

دلال : إنك تهذى يا سيدى . . سألتك الله عد إلى رشدك . .

ديك الجن : لم أكن فى رشدى كما أنا الآن يا دلال . . سأشرب من الكأسين بقية عمرى ، كأساً لورد وكأساً لبكر . . وسأنزف قلبى شعراً باكياً تتغنى به الناثحات فى المآتم والسافحات الدمع عند القبور .

دلال : سيدى . . أو أطلب منك التجلد . . وأنا أحق الناس به . . ألا أصغيت ؟

ديك الجن : بل اصغى أنت يادلال . . إنه آخر رجاء لى . . إنها وصية . . وصيتى . . لتعيشى أنت يا دلال . . ولتروى للناس مأساتى . . قولى لهم ما رأيت بلا زيادة ولا نقصان . قُصى على الناس مأساة ديك الجن عبد السلام بن رغبان شاعر حمص . . وعاشق ورد وقاتلها هى والصديق . . .

ليتنى لم أكن لعطفكِ نلتُ
وإلى ذلك الوصال وصلتُ

فالذى منى اشتملتِ عليـــــهِ
العار ما قد عليـــه منك اشتملتُ
قال ذو الجهل قد حلُمتَ
ولا أعلمُ أنى حلمتُ حتى جهلتُ
لائمٌ لى بجهـــــلهِ ولمـــــاذا
أنا وحدى أحببتُ ثم قتلتُ . !

«مارس ١٩٧٠»

عاشق النجوم

« اللهم إنى عرفتك على مبلغ إمكانى فاغفر لى . .
فإن معرفتى إياك وسيلتى إليك »

عمر الخيام

عمر الخيـــام

كان عاشقاً للنجوم . . علا نجمه بها وانتهى شهيداً لها .

هو غياث الدين عمر أبو الفتح بن إبراهيم الخيام .

إمام خراسان وعلامة الزمان

فتى نيسابور وشاعرها الجسور

حج البيت وأقام فى مرو وهبط بغداد وأصفهان والتف حول أهل الصوفية بالثغور والبلدان .

عديم القرْن فى علمى النجوم والحكمة وبه يضرب المثل فى علوم الرياضة والطبيعيات .

كان عالماً بالتاريخ بارعاً فى الطب خبيراً بالإلهيات ، له رسائل وكراسات ومختصرات فى اللغة والفقه والوجود والكون والتكليف وصاحب أول تقويم لعيد

النيروز الذى يعمل به فى فارس حتى الآن .

ولكن ذكره طار بالرباعيات التى ظلت مجهولة طوال أربعة قرون حتى اكتشفها الشاعر الإنجليزى فيتزجرالد (١٨٦٠) وبقدر ما أعطت الخيام من الشهرة والذيوع بقدر ما حجبت الوجه الآخر فى شخصية عمر الخيام .

وجه العالم الباحث صاحب السبق المبكر فى ارتياد مجالات العلم والكشف والنجوم . .

ولـد عام ٤٣٣ هـ الموافق ١٠٤٠ م

ومات عام ٥١٧ هـ الموافق ١١٢٣ م

اللقـاء الأول

والد ياسمين : هيا . . أسرعى يا ياسمين . . إن الغبار يتراكم على الكتب والأوراق وإن الأرض لمغطاة بالقصاصات والضحى غمر وجه الدنيا .

ياسمين : لأنك لا تكف عن القراءة للصغار ولا يكفون هم عن تمزيق الأوراق ونشر الفوضى فى الحانوت فيتسخ كل يوم وأنظفه كل يوم .

الأب : هذه الفوضى هى التى تجلب لى النقود . . وقراءاتى للصغار بأجر . . وبيعى المخطوطات للكبار بأجر . . ونسخ الكتب بأجر . .

ياسمين : كل شىء تفعله بأجر . . وأنا أقوم بكنس الحانوت ورشه . . وترتيب مجلداته وكتبه بدون أجر !

الأب : إن أمك وإخوتك يلتهمون كل شيء . . وأنت لا تساعدينني كما يجب وتفضلين اللهو على النهر مع أترابك على الوقوف بجانب أبيك الذى كلَّ بصره ووهن عظمه يا ياسمين . .

ياسمين : ألهو على النهر ؟ أتسمى حمل جرة الماء فى الصباح مرة وفى الغروب مرة . . لهواً يا أبى . . إنه لأشق من نسخ المخطوطات ومن زعيق أمى . .

الأب : إنك لم تعودى صغيرة يا ياسمين . . لقد كبرت وأوشكت على الخامسة عشرة . . صرت حلوة . . وآن لك أن تلزمى البيت حتى إذا جاء . . . .

ياسمين : حتى . . إذا . . ماذا يا أ . . بى . . هيه ؟

الأب : لا شيء . . لم أقصد شيئاً . . يا ياسمين . . .

ياسمين : أقول لك أنا . . حتى إذا بعت كتاباً ثميناً . . وأقضى أنا اليوم على خدمتك فى الحانوت . . تضحك على بقطعة حلوى . . كما فعلت بالأمس . .

الأب : بالأمس . . أعطيتك حلوى ؟ وقبل الأمس بأيام أعطيتك قطعة حلوى أخرى . . ياله من تبذير يا بنيتى . . .

ياسمين : وبعت فى المرتين كتابين دفع فيهما الشارى ذهباً . . أتنسى الذهب يا أبى . . وتذكر الحلوى !

الأب : وماذا تريدين غير الحلوى يا طفلتى الحلوة ؟

ياسمين : أريد عقداً . . سواراً . . وشاحاً . . زجاجة عطر . .

الأب : ويلك يا ابنة الوراق . . من أين لى بكل ذلك وأنا لا ألاحق أمك وإخوتك ؟

ياسمين : من الذهب الذى قبضته بالأمس . . عشرة دنانير ذهباً . . دفعها لك الأمير وصديقه مقابل كتاب مملوء بالصور والألغاز . . قطعة حلوى واحدة دفعتها لى مقابل تنظيف لخانوت وحفظ أوراقه .

الأب : أمير . أتقصدين رحيماً ورفيقه . . حقاً إنه يبدو كأمير . . وإن لم يكن كذلك حقاً . أما رفيقه الذى لا يفارقه فإنه . .

ياسمين : إن رفيقه هذا متوحش صموت . . يعشق الكتب الغامضة ذات الرسوم والمربعات . . وما إن يقلب صفحات الكتاب حتى ينسى كل شىء حوله . . أهو أمير كذلك يا أبى ؟

الأب : لا يا ابنتى إن عمر الخيام . . ليس أميراً . . ولكن صاحبه رحيم يعيش كالأمراء وهما إخوة فى الرضاعة ورفيقه فى العلم والدرس . .

ياسمين : وهل لدى الأمير جواد أبيض سرجه من ذهب ولجامه من فضة وسنابكه من ياقوت محروق ؟

الأب : أظن أن له جواداً . . ولكننى لا أعرف هل له سرج من ذهب أو لا !

ياسمين : وهل له جناحان يا أبى ؟

الأب : جناحان . . وهل لجياد أجنحة يا ابنتى أو سنابك من ياقوت محروق ؟

ياسمين : فعند هل يطير فوق السحاب ويقطف النجوم ويخطف الحوريات والعذارى ويخبئهن فى أقبية القصور ؟

الأب : وإذا يقطف النجوم ويخطف الحوريات والعذارى يخبئهن يا ياسمين ؟

ياسمين : لأنهن يسهرن الليالى فى انتظار أن يفعل الأمير ذلك . .

الأب : لقد مسَّك شىء أيتها الشيطانة الصغيرة . . إن الفتيات أفسدن عقلك لطول عبثكن عند النهر . . وهذه الكتب التى تنبشين فيها من وراء ظهرى كأننى لا أراك . .

ياسمين : من ؟ أنظر يا أبى . . لقد أقبلا . .

الأمير رحيم : دعها بالله أيها الوراق العجوز حذار أن تغضبها . .

الأب : من ؟ الأمير ؟ .

ياسمين : من ؟ عمر . .

رحيم : نعم أيتها الصغيرة . . إن للجياد أجنحة . . وللأمير جواداً أبيض حقًّا كما تقولين . . والحوريات والعذارى . . يسهرن فى انتظاره . . كل مساء ولا يجىء .

عمر : جواد أبيض يخوض به الحرب . . ولكنه لا يمسك به النجوم ويسرح خلفه الحوريات ليطير بين السحاب .

رحيم : ليست الجياد وحدها يا صغيرتى تطير . .

عمر : بل إن القلوب أيضاً لها أجنحة تطير . . وترف . . وتحلم . .

ياسمين : نعم تطير . . وترف . . وتحلم . .

الأب : هيا . . يا ياسمين . . ناوليني هذه المخطوطة الجديدة . . التى وردت اليوم من خراسان . . إنها يا سيدى مخطوطة لا تقدر بثمن . . وهى . .

عمر الخيام : لنراها أولا . . ثم نتحدث فى الثمن أيها الكتبى القاسى القلب .

ياسمين : تفضل يا سيدى . . هاك الكتاب . . إنه يبدو مملوءاً بالرسوم

والخطوط والألغاز التى تحبها . . ولكن معذرة . . فيه ورقة ممزقة . . .

الأب : ورقة ممزقة ! كيف حدث ذلك ؟ إنك أنت لا تكفين عن النبش فى الكتب ولن يكفينى فى ذلك علقة ساخنة . .

عمر : هون عليك يا أبى . . لا تهم هذه الورقة الممزقة ولا داعى للعلقة الساخنة !

رحيم : سنشترى الكتاب أيها الكتبى . . بورقته الممزقة وأهديه لذلك العاشق . . المفتون بالكتب وبالغريب منها . . والمفتون بغير الكتب كذلك .

الأب : إنه نسخة نادرة . . دفعت فيها ثمناً كبيراً . . ولا يوجد مثيلتها فى مكتبة خراسان .

رحيم : عشرون ديناراً ذهباً . . لعلها تلجم لسانك عن المساومة . .

الأب : رضيت أيها الأمير . .

رحيم : عشرون قطعة حلوى مثلها تدفعها إلى هذه القطة الصغيرة التى تحب الحلوى . . والجياد . .

ياسمين : لست صغيرة . . ولست قطة . . ولا أحب الحلوى . .

عمر : وماذا تحبين . . أيتها القطة الحلوة المشاكسة . .

ياسمين : أحب الورود . . وأعشق النجوم . . وأحلم بجواد أبيض سرجه من ذهب وسنابكه من ياقوت محروق !

عمر : إذن . . قابلينى غداً عند النهر لأقطف لك وردة . . وأصطاد لك نجمة ونطير بالجواد عبر السحاب . .

ياسمين : غداً . . عند النهر . . قبيل الغروب . .

غدٌ بظهرِ الغيبِ واليـوم لى
وكم يخيبُ الظن فى المُقْبـلِ
ولست بالغافـلِ حتى أرى
جمال دُنياى ولا أجتلـى

ياسمين : أبحث عنك هنا . . فأجدك هناك . . تحدق فى السماء وتجاوز النجوم !

عمر : ياسمين . . أهلا بالوردة الجميلة . . أتغارين من النجوم والسماء أم تغارين من الورود التى تنتشر حولنا بالعبير . ؟

ياسمين : بل أغار من هذه النجوم التى لا تمل من التحليق حولها ومحاورتها .

عمر : ألم أعدك بأن أصطاد لك نجمة . . وها أنا ذا أرمى شباكى حولها لأرصّع صدرك بواحدة من لآلئ السماء .

ياسمين : ووعدتنى بأن تحضر جواد صديقك الأبيض لنطير على أجنحته ونسابق السحاب . .

عمر : ولقد صدقت . . وأحضرت لك الجواد الأبيض خفقاته من ذهب ولونه من فضة . . وجناحاه حب وأمل . . ودمه ياقوت محروق . .

ياسمين : وأين هو . . إننى لا أراه . . هل خبأته فى قاع النهر . . أو أسدلت عليه أغصان الشجر ؟

عمر : بل خبأته فى قاع عميق . . بين جوانحى . . وأسدلت عليه ستائر الضلوع . حتى لا تسحره فيطير . .

ياسمين : يالك من شاعر حقًّا . أتخبئ الجياد وراء الضلوع ؟

عمر : ألا تسمعين . . إنه يركض ويثب ويغرس سنابكه فوق هام النجوم وبجانبه حورية اسمها ياسمين . . إن قلبي هو جوادي الأبيض الذي أحملك فوقه وأطير بلا جناح . .

ياسمين : إن من يسمع كلماتك العذبة تلك . . لا يراك وأنت صامت متجهم تغرق وجهك بين صفحات الكتب وألغازها ولا تلتفت لشيء آخر .

عمر : أو كان هناك شيء آخر ألتفت إليه يا ياسمين ؟

ياسمين : نعم . . كانت القطة التي تسميها صغيرة تقبع في ركن من الحانوت لتراقبك وأنت تقلب الكتب وتأسرك صفحاتها وتلهيك عن كل شيء .

عمر : وتغارين من الكتب كذلك . . وماذا أيضاً أيتها العشقة الصغيرة . . هيا أفرغي ما في جعبتك . . وقولي ؟

ياسمين : إنني منذ وقت بعيد لا أراك إلا غادياً ورائحاً على سوق الورقين ومرة اختلست النظر في حانوت أبي لأرى أية كتب تلك التي تأسر لبك فلا تجعلك تلتفت إلي . . .

عمر : وماذا وجدت أيتها الغرّة الجميلة . .

ياسمين : وجدت مكعبات وخطوطاً . . ودوائر ورسومات ورموزاً تملأ الكتب ولا أفهم فيها شيئاً . . كأنها الطلاسم والألغاز .

عمر : إنها خطوط ومكعبات بطليموس . . ودوائر ورموز إقليدس ونظريات القدامى من الرياضيين والفلاسفة . .

ياسمين : ومالك أنت أيها الشاعر . . بالخطوط والجداول . . لقد مزقت مرة صفحة من كتاب غيظاً منك وانتقاماً لأرى ما أنت فاعل !

عمر : ودفعنا لأبيك فيه أضعاف ثمنه الذى يستحقه . . ومنعنا عنك علقة ساخنة . .

ياسمين : ولماذا تدفع فيه أضعاف ثمنه !

عمر : لأننى سأتقاضى أضعاف ما دفعت فيه من ابنة صاحب الحانوت . .

ياسمين : وكيف تتقاضى ذلك حقًّا ؟

عمر : عندما يضمنا سقف وعش صغير . .

ياسمين : سقف وعش صغير؟ ماذا تعنى . . أتعنى ذلك البرج العتيق المهجور الذى يقع خلف المقابر . . وتقيم فى غرفة أعلاه لا تغادرها ؟

عمر : نعم هو ذلك البرج العتيق المهجور . .

ياسمين : لقد قالوا إنك ساحر مرة . . وتعشق الجنيات مرة أخرى وإنك تغلق غرفتك التى فى أعلى البرج وتناجيها . . وتسرح معها .

عمر : نعم هو هذا البرج . . لكم حلمت به عشًّا يضمنا معاً . . بودى لو فرشته لك بالديباج والرياحين . . وجعلت من غرفته العليا أكبر مرصد فى العالم .

ياسمين : تريد أن تكون عرافاً مثل سيدى الشيخ أحمد . . عراف نيسابور الشهير وصاحب أكبر مرصد فى العالم . . إننى لا أفهم شيئاً . .

عمر : إن سيدك الشيخ أحمد منجم كذوب يبتز عقولكم وأموالكم .

ياسمين : أو لا تؤمن بسيدى الشيخ أحمد شيخ العرافين ! !

عمر : لا أومن إلا بالعلم والعمل . .

ياسمين : تريد أن تكون عالما كبيراً . . كمرآة الحكمة أمام العلماء ؟

عمر : ليس كذلك بالضبط أريد أن أترجم أفكارى . . وأضيف الجديد فى العلم .

ياسمين : صدقنى يا ابن إبراهيم أننى لا أفهمك . . بل إنك تبدو غامضاً أحياناً . !

عمر : لا غموض هناك . . إنه حلم . . يا ياسمين . . أن أصنع مرصدا وأشتغل بعلوم النجوم والفلك والحكمة وأخرج على الناس بما لم يسمعوه من قبل .

ياسمين : كم سنك الآن يا ابن إبراهيم ؟

عمر : دون الثلاثين . . لم ؟

ياسمين : لأنك تتحدث كعجوز فى الخمسين ولطالما راقبتك وأنت تعبر الطريق ما بين ساحة المسجد وسوق الوراقين فلا اراك إلا مطرقاً مهموماً . .

عمر : أو كنت كذلك حقا ؟

ياسمين : نعم . . حتى بدأت أختلس النظرات فى المخطوطات التى ينسخها أبى لك لأعرف ما يشغلك . . فقد ظننتك تشتغل بالسحر !

عمر : وإنى لأشتغل به حقًّا . . وأى سحر أجمل وأبهى من سحر عينيك وبسمتك . . وصباك النضير ؟

ياسمين : بينما كنت أرى صديقك رحيماً ضاحكاً طروباً فى روحاته وغدواته . .

عمر : إنه ضحك الطير الذبيح فإن رحيما مهموم مؤرق الليل مثلى . . .

ياسمين : أو عاشق كصاحبه ؟

عمر : نعم عاشق ولكنه يعشق شيئاً آخر اسمه الإمارة . . فكما أحلم أنا بك وبالمرصد . . يحلم هو بالحرب والإمارة . .

ياسمين : أو ليس صاحبك أميراً حقًّا ؟

عمر : بل إنه لأمير . . فهو من أشراف فارس الأقدمين . . ومن أكبر ثراة نيسابور يأمر فيطاع ويمشى فيحفون به كأنه الأمير . . .

ياسمين : وأنت . . ألست أميراً ؟

عمر : ألا تعرفين ! أنى أمير هذا البرج المهجور . . وأمير هذا القلب الذى بين جوانحك . . إن أبى كان ملكاً . . لصناعة الخيام وعنه ورثت اللقب . . أتسمعين أليس ذلك صوت أقدام . .

جفرق : (مهرج الأمير) يا ابن إبراهيم . . يا ابن إبراهيم . . إن سيدى رحيم يبحث عنك ويريدك فوراً . .

عمر : رحيم . . أين يا جفرق ؟

رحيم : هنا يا عمر . . أقطع الأرض بحثاً عنك وتجلس أنت على شاطئ النهر تسامر حورية من بنات الضفاف . .وأسامر أنا جفرق . . وهو يلهث بحماره الأسود أمام جوادى الأبيض الأصيل !

ياسمين : إن عمراً لديه جواد أبيض كذلك أيها الأمير . . .

رحيم : لم أكن أعلم . . أين هو أيتها الحورية الجميلة ؟

ياسمين : بين ضلوعه . . إنه يخبئه داخل صدره حتى يشب ولا ينطلق . .

عمر : إلى أين يا أخى رحيم ؟

رحيم : لنخوض الحرب ضد جيوش الروم الأعداء . .

جفرق : الحرب . . الحرب . . هبوا أيها النواه . . حانت المعركة . .

ياسمين : الحرب . . أراحلان إليها حقًّا ؟

رحيم : أعدك بأن يعود لك عمر . . وإن عدت معه فلك الجود الأبيض . . وإن لم أعدفهولك هدية أيضًا تذكرين بها صديق عمر . .

ياسمين : سلاما يا عمر . . لقد اصطدت لى نجمة وأسرجت الجواد المجنح ولكنك لم تقطف لى وردة . .

عمر : أعدك بأن أقطفها لك عندما أعود . .

أطفئ لظى القلب ببرد الشرابْ
فإنما الأيامُ مثلُ السحابْ
وعيشنا طيف خيالٍ فنـلْ
حظك منه قبل فوْتِ الشبابْ

* * *

تمضى وتبقى العيشة الراضية
وتُنْمحى آثارُنا الماضية
فَقَبْل أن نحيا ومن بعدنا
وهذه الدنيا على ماهية

النبوءة الكاذبة

عمر : ما حكاية الحرب يا رحيم . ؟

رحيم : لقد جاءتنى الرسل بأن السلطان نزل بعسكره فى مواجهة الروم . .

وأصبحت المعركة لا ريب فيها .

عمر : أما زلت مصرا على أن تخوض الحرب فى صف السلطان ؟

رحيم : نعم يا عمر مازلت . . لقد سئمت مطاردة الغزلان . . وترف الليل ومعاقرة النبيذ . . وشاقنى أن . . أصنع شيئاً آخر أملأ به حياتى . .

عمر : إننى أعرف ما يحتويه قلبك الكبير يا أخى رحيم . . فلى قلب يعانى مثلك ويتوق للمغامرة . . والبحث ولذا سأصطحبك . .

رحيم : إن مغامرتك هى العلم يا ابن إبراهيم . . ومغامرتى هى الحرب . . وإنها لتستهوينى كما يستهويك العلم . . فما الذى يعجبك فيها حتى تصاحبنى .

عمر : الجديد . . اكتشاف الجديد يعجبنى دائماً يا أخى رحيم . . أريد أن أعبر النهر وأمرق بين الجبال وأعتلى القمم علنى أعرف خفايا النجوم .

رحيم : ولكن غبار الحرب حين يعلو يحجب وجه القمر والنجوم !

عمر : ولكنه لن يقوى على أن يحجب وجه الحياة أبداً . .

رحيم : لقد أعددت فرقة كاملة بالسلاح والعتاد . . سأقودها بنفسى وسنرحل فى الليل لعلنا نبلغ عسكر السلطان فى السحر ونلتقى بولى عهد السلطان .

* * *

رحيم : السلام على شبل الأسد . . أمير المملكة المظفر . . وولى عهد السلطان الأكبر . .

شبل الأسد : وعليك السلام أيها الفارس النبيل . .

رحيم : لقد جئت بفرقة مسلحة . . وامتشقت سيفى لأحمى أرض وطنى . . وعرش سلطاننا الأكبر .

شبل الأسد : إن الرجال الكرام أمثالك لا يعرفون إلا وقت الشدائد . . وسيسر السلطان بذلك ، إنه الآن يعقد مجلس الحرب مع كبار قواده . . فربما نشبت المعركة عند بزوغ الفجر .

رحيم : اسمح لى أيها الأمير أن أقدم لك أخى وربيبى عمر بن إبراهيم الخيام . . طالب علم يشتغل بالفلك والعلم والنجوم . .

الأمير : وما الذى تقدمه النجوم لصاحبك فى حربنا هذى ! ؟

رحيم : يقول إنه يود لو يراها من فوق القمم . . ومن وراء غبار المعركة ويعيش تجربة الحرب ، إنه شاعر كذلك يا مولاى . .

الأمير : لقد جاء فى وقته حقًّا . . فهؤلاء العلماء وكبار العرافين جمعتهم فى خيمتى ليحسبوا لنا حساب الحرب . . ويقرءوا طوالع النجوم .

رحيم : وهل وصلوا إلى شىء يا سيدى الأمير ؟

الأمير : أجمعوا على أن الثريا وسهيلا يعتنقان وهذا نذير الخطر ورسموا جدولا لمواقع النجوم . . أيّد هذا الظن . . انظر يا ابن إبراهيم وقل رأيك ؟

عمر : إن ثمة غلطة كبرى فى تحديد مواقع النجوم يا سيدى الأمير كما أن الثريا وسهيلا فى هذه المواقع لا يجتمعان أبداً . .

أصوات : هذه مغالطة . . هذه جرأة على رجال العلم والعرافين . . إن قوله محض افتراء وهباء .
كيف يجرؤ على تكذيبنا وهو مجرد طالب علم بعد .

إن فى ذلك إهانة لعلماء الملك ومنجمى العرش فى حضرة ولى العهد .

الأمير : وماذا تقول لك النجوم يا ابن الخيام . . أنبئنا ولا تكذب . . فالمعركة فاصلة . .

عمر : أيها الأمير شبل الأسد . . إن منازل الكواكب فى موقعها الصحيح . . تقول إن لمولانا السلطان النصر . . ولعدوه الهزيمة . . ولكن . . و

الأمير : قل . . ولا تُخبئ شيئاً يا ابن الخيام . . قل .

عمر : ولكن . . ليعفنى مولاى الأمير فما بعد ذلك لن . . يسره .

الأمير : إن أبى السلطان الأكبر توغل فى آسيا الصغرى حتى أقض مضجع الروم وانتزع منهم حلب والمقدس . . وقد حشدوا حشودهم ضدنا . . وتجئ أنت تنبئ بالنصر . . ثم تخشى أن ما بعد ذلك لن يسرنى . . أفصح ! ؟

عمر : ولى الأمان أيها الأمير . . .

الأمير : ولك الأمان يا ابن الخيام . .

عمر : مولاى شبل الأسد تقول النجوم إن كلا من الملكين . . المنتصر والمنهزم ، سيموتان . . .

الأمير : كلاهما يموت ! والملك كذلك . . أواثق من نجومك يا رجل ؟

عمر : واثق أيها الأمير . .

الأمير : ثلاث نبوءات معاً . . النصر . . وموت القيصر . . وموت السلطان لو تحققت لكان أمرك عجباً . .

رحيم : مد الله فى عمرك وعمر والدى مولانا ملك الترك . . ربما لم يدقق أخى عمر النظر فى النجوم جيداً .

الأمير : لقد قال صاحبك نبوءته بعد أن أعطيته الأمان . . فلا حرج هناك . . أريد أن أسألك يا ابن الخيام . .

عمر : تفضل أيها الأمير . .

الأمير : أين درست علومك ؟

عمر : فى جامعات نيسابور مسقط رأسى . . وقرأت العلوم الإلهية واللغات . والفلسفات والمنطق والطب والفلك والرياضة لفلاسفة العرب واليونان والفرس . . .

الأمير : وهل درست لدى عالمنا الأكبر مرآة الحكمة ؟

عمر : لم أتشرف يا مولاى بتلقى العلم بعد من شيخ علماء عصره مرآة الحكمة .

الأمير : أرجو أن لا يفوتك ذلك يا خيام . . والآن انصرفوا فإننى أريد أن أخلو إلى نفسى . .

* * *

رحيم : ويلك يا عمر . . كيف جرؤت على ذلك . . تنعى الملك أمام ولده الأكبر الأمير شبل الأسد . . وتثير عينك سخط العلماء ؟

عمر : لقد سرنى أن أزعج العلماء والمنجمين . . ألم تر عباءاتهم الملونة الفضفاضة وعمائمهم الحمراء والزرقاء . . وعباراتهم الرنانة الجوفاء وهم يتشدقون كأنهم يملكون سر الدنيا .

رحيم : ولكنهم لن يغفروا لك ذلك . . إن أعينهم كانت تقدح شروراً عليك . .

عمر : وماذا يملكون لى ؟ لقد أسعدنى أننى سخرت منهم .

رحيم : وهل كانت دراستك للنجوم ونبوءتك عنها صحيحة ؟

عمر : وهل تخبرنا النجوم حقًّا . . بمصائر البشر ؟

رحيم : ماذا تقصد ؟ إذن بماذا تخبرنا النجوم ؟

عمر : تخبرنا النجوم والأفلاك . . بتتابع الفصول . . ودوران الأرض . . وتوقيت الزمن . وحسابات الظل . . وظواهر الجو وما إلى ذلك . .

رحيم : كذبت إذن على الأمير ؟ !

عمر : لم أكذب . . فقد حددت منازل النجوم على حين أخطأ العلماء.

رحيم : ما أظنك إلا أوردت نفسك موارد التهلكة يا عمر . .

عمر : من يدرى . . إن الغيب بيد الله وحده . .

رحيم : وربما صدقت نبوءتك وأصبح لك شأن آخر . . إذا حدث ذلك واستدعاك شبل الأسد وقد اعتلى العرش المرصع بالزبرجد وفرش لك البساط الأحمر . . فاذكرنى بالخير . .

عمر : أعدك بذلك . . أما إذا كذبت النبوءة . . فلن يستطيع الملك المهزوم أن ينالنى . .

أصوات : – الحرب . . الحرب . . شبت نار الحرب . .

– التحم الجيش الرومى بالجيش التركى

– سبعون ألفا جيش الأعداء مسربلون بالدروع والسهام والقذائف الحارقة .

– خمسة عشر ألفا جيش الملك . . وهو يقود بنفسه المعركة . . وعلى يمينه ولى عهده . .

- تقدم جيش الأعداء . . وكرَّ الروم . .
- تقهقر جيش الملك . . وفرَّ الترك . .
- الشمس حريق . . والأرض حريق . . وغبار الحرب يسد الأفق على الاثنين .
- كر الترك وفر الروم . . التحم الجيشان .
- قتلى . . جرحى . . أسلاب . . أغنام . . أشلاء . .
- طعنة سيف . . طعنة رمح . . سقط الشهداء . .
- سقط رحيم . . استشهد بطلا . . مات رحيم . .
- اكتظ الميدان . . بالقتلى والفرسان . . اكتظ الميدان .
- التحم الجيشان .
- انتصر السلطان على ملك الروم ودحر الأعداء .

عمر : إنتصر السلطان وسقط رحيم . . مات رحيم . . ويلى بعدك يا أغلى الأصحاب :

الدرع لا تمنع سهمَ الأجـلْ
والمالُ لا يدفعهُ إن نـزلْ
وكل ما فى عيشنا زائـلٌ
لا شىء يبقى غيرُ طيبِ العمـلْ
طَوَتْ يد الأقدارِ سِفْرَ الشباب
وصوَّحت تلك الغصُون الرِطابْ
وقد شدا طيرُ الصبِى واختفى
متىَ أتىَ . . يا لَهفا . . أين غابْ ! ؟

الخيام : لم يعد لنا من مقام هنا . . يا جفرق . . فاحبس دموعك وتجلد وقم للرحيل . .

جفرق : وكيف تجف دموعى يا سيدى وأنت تعلم أن مولاى رحيم هو كل ما لى فى الحياة . . لا بيت لى ولا ولد . . لم يكن لى غيره . .

الخيام : رحم الله رحيما . . حسبنا ما لقينا من فجيعة فيه . . وأنت يا جفرق لا تحزن سأكون لك كما كان سيدك . .

جفرق : لقد كنت ربيبه الذى لا يفارقه . . وأن أكون تابعك بعد رحيم لعزاء لى يا سيدى . .

عمر : قم واسرج الجياد . . ولا تنس جواد رحيم الأبيض . . .

جفرق : ولمن سيكون يا سيدى ؟

عمر : لقد وهبه رحيم أخى . . لواحدة كانت تحلم بجواد مثله يطير بها ويحلق .

جفرق : سيدتى ياسمين ؟ !

عمر : نعم . . وعدها حيًّا أو ميتاً وكأنها كانت وصيته الأخيرة . .

جفرق : وإلى أين يا سيدى إلى نيسابور ؟

عمر : لا . . يا جفرق . . فإننى لا أطيق أن أراها بعد فقد رحيم . . فوجهه يطل من وراء كل شىء فيها . .

جفرق : أحسنت يا سيدى . . فأنا كذلك لن أقوى على دخولها بجارى الأسود الهزيل دون أن يتقدمنى سيدى رحيم بحصانه الأبيض الأصيل .

عمر : سأتجه أنا إلى سمرقند . . أنشد لقاء علمائها . . ثم أقصد خراسان . . لأتلقى العلم على يد عالمها شيخنا إمام الحكمة . . على أنسى هول الحرب وفقد الصديق . .

جفرق : وأنا معك بالطبع يا سيدى . .

عمر : بل تذهب أنت إلى نيسابور . .

جفرق : نيسابور . . بلا سيدى رحيم . . ولماذا ؟

عمر : لتعود بجواده الأبيض . . وتسلمه إلى ياسمين . . فقد وعدها بذلك . . وما كان رحيم يخلف وعدا له . .

جفرق : من أجله . . ومن أجلك سأعود يا سيدى . . فهل أبلغ ياسمين رسالة ؟

عمر : قل لها . . ألا تذهب إلى حانوت أبيها أو النهر . . وإننى سأعود بالعلم . . والمال . . وأبنى لها عشًّا فى بيت النجوم . .

جفرق : أو تقصد مرآة الحكمة إمام علماء عصره يا سيدى . .

عمر : نعم فلعل الرحيل فى طلب العلم يشفى فجيعتى فى رحيم . .

* * *

عمر : السلام على إمام علماء عصره سيدى على مرآة الحكمة .

مرآة الحكمة : وعليك السلام . . يا ابن إبراهيم . . لقد انتظرتك كثيراً . .

عمر : أو يعرفنى الشيخ الأكبر . . ولم يسبق له أن رآنى . .

مرآة الحكمة : بل سبقتك أخبار نبوغك وبراعتك . . فى علوم الفلسفة والفلك والرياضيات .

عمر : هذه شهادة فخر أعتز بها من شيخ العلماء .

مرآة الحكمة : وسبقتك أيضاً رسالة من شبل الأسد ولى العهد . . يُثنى عليك ويزكيك لتكون فى مجلس علمنا . . فما عوّقك ؟

عمر : طفت بسمرقند وهبطت بغداد وأصفهان وخالطت علماءها وأدباءها والتمست فيها السلوى والعزاء . .

مرآة الحكمة : وممن السلوى والعزاء ؟ .

عمر : من هول ما شاهدت فى الحرب . . ومن هم ما يثقل رأسى من خيالات . .

مرآة الحكمة : ومالك . . والحرب وأنت طالب علم وفلسفات . .

عمر : أحببت أن أثرى تجربتى ومشاهدة البلاد والعباد . . وأن أعتلى النجوم لأرصد النجوم . . وألا أفارق صديقاً أثيراً لدى . .

مرآة الحكمة : وهل حققت لك الحرب ما تريد ؟

عمر : رأيت هولا ما بعده هول وفقدت أغلى الأصدقاء . . وعدت بذكرى سوداء وشعرات بيضاء شابت لها رأسى قبل الأوان . .

مرآة الحكمة : هذا عن الحرب . . . فما هو الهم الذى يثقل رأسك يا ولدى ؟

عمر : إن رأسى تمج بالأفكار . . وعقلى يود لو اخترق الحواجز والسدود . . وصدرى مثقل بالكثير مما أريد أن أترجمه كشفاً وبحثاً .

مرآة الحكمة : إنك موهوب يا ولدى . . هكذا تقول أسارير وجهك . . وإنى لأتوسَّم فيك الكثير . . ولكن خيالك كشاعر فيه من الجموح والطموح ما يخيفنى عليك . .

الخيام : أرجو أن أكون عند حسن ظن أستاذى .

مرآة الحكمة : لقد كلفنى الأمير شبل الأسد أن أضع كتاباً فى الرياضيات . . فألفت كتاباً فى الجبر . . خذه وانظر فيه . . وأطلعنى على ملاحظاتك . .

أصوات : – لقد خص أستاذنا الشيخ تلميذه الجديد بمراجعة كتابه الجديد . . .

– وهذا تقدير خاص يظفر به واحد من طلاب مجلسه .

– إن الخيام لا يكف عن تدوين الملاحظات ورسم الهوامش والمكعبات فى أوراق كثيرة . . ولا يفارق غرفته منذ أتى .

– لقد لاحظ الشيخ هذا فى أثناء حلقة درسه فاستراب فيما يكتبه .

– ربما خشى الشيخ أن يكون الخيام جاسوسا من قبل الوزير والأمير .

– الوزير نظام الملك لا يترك حلقة درس فى أرجاء المملكة دون أن يسلط عليها العيون . .

– والأمير شبل الأسد مولع بالكواكب . . ويُجل العلماء ولهذا أوصى سيدنا الشيخ بعمر . .

مرآة الحكمة : هل انتهيت من قراءة كتابى يا ابن الخيام . .

عمر : نعم . . وإنه لكتاب نادر ثمين . .

مرآة الحكمة : أما من ملاحظات أو تعقيبات ؟

عمر : عفواً . . سيدى الشيخ . . فأنت إمام خُراسان . . ولكننى لاحظت أنه يمكن حل ما ذكرت من معادلات بطريقة أخرى . .

مرآة الحكمة : طريقة أخرى . . إن شيخ الجبر نفسه جابر بن حيان لم يقل بطريقة أخرى .

عمر : ولكنى اكتشفت طريقة أخرى تعتبر مفتاحاً لحل المعضلات من المعادلات .

مرآة الحكمة : وهل طبقت اختراعك على كتابى ؟

عمر : وعلى غيره من الكتب . . فمنذ توصلت إليه وأنا دائم التجريب حتى كفلت نجاحه . . ووثقت من ذلك اليوم . .

مرآة الحكمة : ومنذ متى اكتشفت نظريتك الجديدة .

عمر : منذ حين قريب يا مولاى . . خلال شهور على الأكثر . .

مرآة الحكمة : يا ولدى . . لقد أطلت العكوف السنين الطوال لأظفر بما ظفرت به . . وأنفقت نصف عمرى ولم أنته منه بعد !

عمر : إن أبا ريْحان البَيْرُونى . . والرئيس ابن سيناء وإقليدس وبطليموس قطعوا فى ذلك شوطاً . . .

مرآة الحكمة : وتجىء أنت فتبلغ نهاية الشوط وتضع مختصراً فى الرياضة . . هل لى أن أراه يا بنى ؟

عمر : ليس بعد يا سيدى الشيخ . . فهو مختلط بأوراق أخرى فيها مختصر جديد فى الطبيعيات . . .

مرآة الحكمة : مُصنَّفان فى ستة أشهر يا ابن إبراهيم ؟
ولا تريد أن تطلعنا عليها . . أتخشى أن نسرق أفكارك ؟

عمر : عفواً يا سيدى شيخ العلماء . . وإنما أطمع ألا أكشف عنها حتى أفرغ من مختصر ثالث فى الفلسفات .

مرآة الحكمة : الفلسفة . . والطبيعة . . والرياضة . . وقبل ذلك رسالة فى اللغة والتاريخ . . .

عمر : ورسالة فى الفقه والوجود . . والتكليف . .

مرآة الحكمة : وماذا تبقى من وراء هذه الرسائل والمختصرات ؟

عمر : أحلم أن تُدرس فى جامعات نيسابور الست . . وفى مدارس بغداد ودمشق . . فتيسر للطلاب ما يعقده لهم العلماء . .

أصوات : – هذا عدا ما يخطه عمر من رباعيات أكثر جسارة من مصنفاته فى العلم . .

مرآة الحكمة : وماذا يقول فى هذه الرباعيات ؟

– يتحدث فيها عن الروح . . والغيب . . والقدر وما وراء السماء . .

– وتفوح منها روائح العشق والنبيذ . .

مرآة الحكمة : لكم أخاف عليك . . القدر . . والعلماء . . والنبيذ . . .

عمر : لا تَشغلْ البال بماضى الزمـــانْ
ولا بآتى العيشِ قبل الأوانْ
واغنمْ من الحاضرِ لذّاتـــهِ
فليس فى طبعِ الليالى الأمانْ

* * *

أوْلَى بهذا القلبِ أنْ يخفقـــا
وفى ضِرَامِ الحُب أن يحرقَ
ما أضيع اليوم الذى مرَّ بـــى
من غير أن أهوى وأن أعشقا

* * *

جفرق : سيدى . . سيدى عمر ابن الخيام . .

عمر : من . . جفرق ؟ أى ريح رمت بك من نيسابور إلى خراسان ؟

جفرق : ريح شمالية تحمل لك الأنباء .

عمر : هل حدث شيء لياسمين . . قل كيف هى ؟

جفرق : ياسمين بخير . . ونيسابور كلها بخير تفخر بفتاها النابغة بعد أن طارت أنباؤه .

عمر : إذن ماذا وراءك . . وما الذى جعلك تقطع كل هذه الأميال لتأتى إلى هنا ؟

جفرق : انتظر أولا . . حتى ألتقط أنفاسى . . فحارى اللعين قطع أنفاسى من طول ما لهثت وراءه . . .

عمر : ولمَ تلهث وراء الحمار بدلا من أن تركبه ؟

جفرق : لقد تعود أن يكون تابعاً مثلى . . وكان لا يسير إلا وراء جواد سيدى رحيم . . وعندما لم يجده أمامه يتعثر فى السير فكنت أدفعه للأمام . .

عمر : كيف حال ياسمين . . أتذكرنا يا جفرق ؟

جفرق : لقد ألزموها البيت . . ولكنها تذهب خلسة . . إلى البرج برغم وحشة المقابر . . علها ترى غرفتك العليا مشعلة السراج . .

عمر : أفرحتْ بالجواد الأبيض ؟

جفرق : بكت وفرحت ياسيدى . . بكت لفقد رحيم . . وفرحت برحيلك للعلم .

عمر : وفيم مجيئك العاجل ؟

جفرق : إن نيسابور كلها تلغط بذكرك وعلمك . . وبتلك النبوءة التى

صدقت ولم يكد شبل الأسد يعتلى العرش حتى أرسل يبحث عنك فى كل مكان . . .

عمر : يبحث عنى . . لماذا !

جفرق : لقد استبشر بنبوءتك التى تحققت . . مات الملكان واعتلى شبل الأسد العرش فبعث الرسل لتأتى بك .

عمر : أحقًّا صدقت النبوءة . . ياله من قدر عجيب ؟ أين أنت يا أخى رحيم أترى تصدق نبوءتك بدورها . . فأدخل على الملك فى قاعة العرش المذهبة ويفرش لى بساطه الأحمر كما قلت ؟

مرآة الحكمة : نعم . . ستدخل على الملك . . وتفرش لك البسط . . وتنثر الدنانير وتقبل عليك الدنيا يا ابن الخيام .

جفرق : وسأركب أنا بغلا أشْهبَ بدلا من هذا الحمار الأسود اللعين .

مرآة الحكمة : من الرجل ؟

عمر : هذا جفرق تابعى . . جاء من نيسابور ليخبرنى أن رسل الملك تبحث عنى . .

مرآة الحكمة : لقد وصلتنى رسالة من الوزير يسألنى الرأى فيك . . وفى صدق النجوم . . فالملك الجديد مولع بالفلك والفلكيين . . ولقد برعت فيها . .

عمر : وماذا قال سيدى الشيخ ؟

مرآة الحكمة : كتبت له برأيى . . وأشدتُ بك . . وما إن انتهيت من رسالتى حتى جئت لأخبرك . .

: وما رأى مولانا الإمام ؟

مرآة الحكمة : أرى أن الملك مسرور بك ومستبشر . . وسيقربك إليه فتنال بذلك ماكنت تصبو إليه ؟

عمر : ليس التقرب من الملك هدفاً لى . . يا سيدى الشيخ . . إنه وسيلة لأحقق بها غاية أكبر . .

مرآة الحكمة : وما هى غايتك الكبرى يا ابن الخيام ؟

عمر : أريد استقراء النجوم ورصد حركة السماء وتحديد دوران الأرض . . وثباتها .

مرآة الحكمة : دوران الأرض . . ويحك يا عمر . . لقد مسَّك شيطان اليونان . . إنك تنطلق كالسهم نحو قدرك وأخشى أن تدور عليك الدوائر . .

الخيام : القلب قد أضْناهُ عشقُ الجمـــالْ
والصدرُ قد ضاقَ بما لا يُقال
يارب هل يرضيكَ هذا الظمَـــأ
والماءُ ينساب أمـــامى زلالْ . .

بين يدى الوزير

الوزير : أأنت ابن إبراهيم الخيام . . طالب الرياضيات . . ودارس الفلسفات وعاشق الخمر والرباعيات . .

عمر : أنا غياث الدين عمر الخيام يا سيدى الوزير . . .

الوزير : يقول مرآة الحكمة عنك إنك تصلح للتدريس لأساتذة بغداد وعلماء خراسان وإن فى جعبتك من أسرار العلوم ما لم تكشف عنه بعد .

عمر : هذا وسام فخار من إمام علماء عصره . . لا أستحقه . .

الوزير : ليكن وساماً . . ولتكن أستاذاً . . فالملك يطلبك وأريد أن أعرف شيئاً واحداً قبل المثول بين يديه . . .

عمر : إننى طوع أمرك يا سيدى الوزير . .

الوزير : كيف استطعت أن تتنبأ بمصير حروب السلطان وبموت كل من قيصر العدو ومولانا الملك واعتلاء ولده شبل الأسد العرش . . .

عمر : إننى . . يا صاحب السعادة . . لم أكن . . أقصد . . الحق . . أعنى . .

الوزير : أراك مصفر اللون . . متعثر الكلمات . . أولم تتنبأ بذلك حقًّا ؟ قل الصدق وإلا أمرت بضربك ! .

عمر : أقول . . الحق . . يا صاحب السعادة ؟

الوزير : والله لو قلت غيره . . لأُعَلِّقَنَّك على باب سمرقند . .

عمر : الحق يا سيدى الوزير . . لم تكن . . هذه النبوءة . . سوى . . سوى . .

الوزير : سوى ماذا . . قل أيها الأحمق . .

عمر : أقول ولى الأمان . . يا صاحب السعادة . . ؟

الوزير : قل ولك الأمان . .

عمر : الحق لم تكن هذه النبوءة . . سوى مجرد مزحة .

الوزير : لم تكن سوى مجرد مزحة . . مزاح فى حضرة الأمير والعلماء ؟

عمر : نعم يا صاحب السعادة مجرد مزحة أطلقتها ومضيت . .

الوزير : لا يمكن أن يكون كذلك . !

عمر : بل كان كذلك . . يا صاحب السعادة فقد رأيت حفنة من العلماء وأصحاب اللحى من المنجمين فى خيمة الأمير ، يحسبون له الطالع ويهرولون كالقطيع . .

الوزير : أعرف ذلك . . وبعد ؟

عمر : وجدتهم قد ارتكبوا غلطة حمقاء فى تعيين مواقع أحد النجوم . . لا يقع فيها إلا جاهل . .

الوزير : وبعد . . أكمل . . وأوجز . .

عمر : سولت لى نفسى أن أسخر منهم . . فتصنعت وقارهم . وتشدقت بلهجتهم وأطلقت نبوءة ما . . وانصرفت . .

الوزير : تطلق نبوءة ما لتسخر من علماء الملك . . فتصدق كلها ؟

عمر : صدقنى يا صاحب السعادة ليس أكثر من مجرد نبوءة ومزاح . . كذبة إن شئت ولا أستطيع لها تعليلا . .

الوزير : النجوم إذن لا تكشف عن طوالع الغيب ؟

عمر : إن مفاتيح الغيب بيد الله ولا يقع شىء إلا بأمره . .

الوزير : صدقت يا ابن إبراهيم لا يقع شىء إلا بأمر الله . . ولقد انفتح لك قلبى لصدقك ونبوغك وسأمنحك صداقتى وأكتم سرك . . على شرط . .

عمر : ما هو يا صاحب السعادة . ؟ !

الوزير : ألا تبوح بأمر هذه النبوءة لأحد . فلو عرف الملك لألقى بك إلى سباعه ونموره . . أو إلى أيدى جلاديه . .

عمر : لن أبوح بهذا السر . . ولن أنسى لك هذا الموقف . . .

الوزير : والآن اسمع . . احتفالا باعتلاء شبل الأسد العرش نريد وضع تقويم جديد يؤرخ لهذا الحادث السعيد . . .

عمر : لك ما تطلب يا سيدى الوزير . . .

الوزير : اطلب أنت ما تريد . . على أن تنجز هذا التقويم فى أقرب وقت ممكن ولن تدخل على الملك إلا به . . وسيجزل لك العطاء . .

عمر : أريد مرصداً به إسطرلاب . . وجداول نجوم . . وأعمدة للظل . . وساعة مائية . . و . .

الوزير : وماذا تريد أيضاً ؟ !

عمر : وكرة سماوية من البرونز . . وجداول إقليدس وبطليموس . .

الوزير : أيتطلب التقييم الجديد كل هذه الأدوات ؟

عمر : ليس للتقويم وحده أطلب المرصد . . أريد أن أضع مقياساً جديداً للزمن وأرصد دوران النجوم والأرض . .

الوزير : دوران النجوم والأرض ! ستجلب سخط العامة وحفيظة أهل الملة والعلماء !

عمر : هذا ما أريده يا سيدى الوزير . .

الوزير : وأين يكون هذا المرصد ؟

عمر : هناك وراء المقابر . . برج مراقبة مهجور . . طالما لذت بغرفه العليا أتأمل السماء وأعمل . . أريد هذا البرج . . مرصداً . .

الوزير : حسبتك تطلب مالا أو جاها . . لا مرصدا مهجوراً . . لك ما تريد على شرط واحد . .

عمر : ألا أذكر نبوءتى المازحة لأحد . .

الوزير : إن سئلت قل كانت وحى الساعة . .

عمر الخيام : لا أفضحُ السر لعالٍ ودونْ
ولا أطيلُ القولَ حتى يَبِينْ
حالى . . لا أقوى على شَرْحِهـــا
وفى حنايا الصدر سرِى دفـينْ

* * *

الله يدرى كل ما تُضْمـــرُ
يعلمُ ما تخفى وما تُظْهـــرُ
وإن خدعتَ الناس لا تستطيـع
خداعَ من يطوى ومن يَنْشـرُ

بيت النجوم

عمر : لقد كنت أرقب القمر فى السماء وأخبرتنى النجوم أن القمر يجلس على شاطئ النهر . .

ياسمين : عمر . . لطالما جلست خلسة لشاطئ النهر أنتظرك وأراقب برجك المهجور وغرفتك الخالية . .

عمر : وطالما سهرت الليالى . . أعمل وكأنى أريد أن أختصر الدنيا فى ليلة واحدة لأعود إليك بالمجد والثروة . .

ياسمين : وها أنت عدت أيها الحبيب . . فاسمك يجرى على فم الريح . . وملأ سمع الدنيا . . و . . ولكن . .

عمر : ولكن ماذا يا ياسمين . . قولى !

ياسمين : مر عيد ميلادى ولم تقطف لى وردة . . شغلتك عيون البابليات وطنافس شيراز .

عمر : بل شغلتنى النجوم فاصطدت لك نجمة وخبأتها فى صدرى ثم سقيتها دم القلب حتى توهجت كالحريق . .

ياسمين : وتركت ضلوع صدرك تحترق حتى فاحت رائحة الشواء !

عمر : لقد صارت النجمة سواراً من اللؤلؤ المرصع بخفقات القلب الذى سقاها . . انظرى . .

ياسمين : سوار . . مرصع بالذهب والياقوت . . والفيروز . . و . . .

عمر : وثوب أبيض . . وأخضر . . وأحمر . . ومسك وعطور . .

ياسمين : ووشاح من نسج أصفهان . .

عمر : ومرآة من صنع فارس . . وكحل من بابل . . و . . .

ياسمين : كل هذا لى . . وأنت ماذا لك ؟

عمر : أنت . . وهذا البرج . .

ياسمين : أما أنا فعرفتا . . وأما هذا البرج فهو أنقاض خرائب تسكنها أنت والأشباح . .

عمر : أنقاض . . خرائب . . لقد تحول البرج إلى جنة . . تعالى وانظرى . .

ياسمين : إنك لساحر حقًّا . . لقد تحول البرج المهجور إلى فردوس مسحور .

عمر : الطابق الأول باللون الأخضر فرش بالبسط الخضراء والنمارق والأباريق المزركشة . . للاستقبال . .

ياسمين : والطابق الثانى ؟

عمر : للنوم . . باللون الأحمر . . وطراز بالوسائد والستر الحمراء وطُعِّم

بالذهب والزبرجد والمصابيح . .

ياسمين : والطابق الثالث ؟

عمر : للعمل . . زودته بالأجهزة والكتب والجداول والأوراق والمراجع . .

ياسمين : وستجلس فيه تقلب الأوراق وتحدق فى النجوم . . وتنبش فى الأضابير . .

عمر : وستجلسين بجانبى نحدق معاً . . وتصبين لى النبيذ ونشرب نخب القمر .

ياسمين : هل فكرت له فى اسم ؟

عمر : بيت النجوم . . ما رأيك ؟

ياسمين : كنت سأقترح عليك نفس الاسم . . خبرنى . . كيف حدث ذلك كله . .

عمر : إنها السلطة حين تشاء . . فالملك يريد تقويماً جديدا لبلاده . . والوزير جهز لى هذا البرج ليكون مرصداً لى فأبدأ العمل .

ياسمين : ومتى تفرغ من هذا التقويم ؟

عمر : فى أيام . . حتى أدخل على الملك وأنال جائزته الكبرى .

ياسمين : وماذا تفعل بجائزة الملك الكبرى ؟

عمر : سأدفعها مهراً لأبيك الشحيح حتى يرضى . .

* * *

الملك : وأخيراً جاء الخيام . . مرحى مرحى . . لقد نال تقويمك إعجابنا . . وأصدرنا فرماناً للعمل به فى أنحاء المملكة منذ اليوم . .

عمر : أدام الله مولانا السلطان .

الملك : ولقد منحناك لقب فلكي الملك وخلعنا عليك جبة الشرف والعلم وأجرينا لك راتباً كبيراً . . فهل لك من مزيد !

عمر : أعز الله مولانا السلطان . . ولا أطمع فى مزيد . . سوى أن أواصل أبحاثى وتجاربى بمرصد النجوم . .

الملك : لك ما شئت . . على ألا يشغلك الشعر والنبيذ عن العمل . .

عمر : ما كان يشغلنى أحدهما عن شيء . . فالشعر يا مولاى هو غذاء الروح ألوذ به كلما جاشت النفس فأسكب فيه نبض القلب وفلسفة الحياة . .

الملك : وأما النبيذ ؟

عمر : ما قصدت به الخمر قط . . وما هو إلا أن اشتهيت الغفلة قليلا وإنما قصدت به رحيق الجمال والمحبة وسلاف العشق والوجد . . حين تسكر الروح بخمر الخلود . . فتحتقر وترف سكرى بغير خمر . . .

طارتْ بى الخمرُ إلى منزلِ
فوق السماكِ الشاهقِ الأعزلِ
فأصبحت روحىَ فى نجْوةٍ
من طينِ هذا الجسدِ الأرزلِ . .

* * *

لم أشربِ الخمر ابتغاء الطَرَبْ
ولا دعتنى قلةٌ فى الأدبْ

لكن إحساسى نزاعاً إلـــى
إطلاقِ نفسِ . . كانَ كل السبَبْ

* * *

هل فى مجال الكون شىءٌ بديع
أحلى من الكأسِ وزهرِ الربيعْ
عجبتُ للخمَّارِ هل يشـــترى
بمالهِ . . أحسنَ مما يبيـــعْ ! ؟

الملك : صدقت يا خيام . . لن يشترى بماله أحسن مما يبيع . . الشراب . . والموسيقى . . وبعض الألعاب . . احتفالاً بالعمل بالتقويم الجديد . .

الوزير : وبتنصيب الخيام فلكياً للعرش . . بعض الألعاب أيها الساحر .

الساحر : جلا . . جلا . . هلا . . هلا . . أنا هنا سبع الفلا . . أنا الساحر العجيب . . أقرأ الأفكار . . وأصنع الأعاجيب . أعرف طوالع النجوم . . وأدرى ما وراء الغيوم .

عمر : إذن فأنت ساحر حقًّا . .

الساحر : نعم وحق النجوم الساكنات فى برج الجوزاء . . العابرات عَنانَ السماء . . وحق البرق الذى يخطف بصرك وأنت ترصد النجوم فى مرصدك الشهير . .

عمر : أو رأيتنى أيها الساحر ورأيت مرصدى الشهير . . ؟

الساحر : أتحداك يا راصد النجوم . . أن تجيب على سؤال لى . .

عمر : أى سؤالٍ وأى تحدٍ أيها الساحر العجيب ؟

الساحر : قل لى يا فلكى الملك من أى باب سأخرج من هذه القاعة ؟ هناك . . أربعة أبواب من أيهم سأخرج يا رفيق الأفلاك وقارئ الطوالع ؟

عمر : ولكن . . ما علاقة علم الفلك بهذا الأمر أيها الساحر ؟

الساحر : أولست فلكى الملك المعظم ؟

الملك : بل أخبره يا عمر . . قل له من أى الأبواب سيخرج وخلصنا . .

عمر : أحضروا لى ورقة وقلماً . . وسأكتب فيها جواب سؤال الساحر وأضعها تحت هذا الدرج . . وأنتظر ما يفعله المهرج .

الساحر : اكتب الإجابة . . إذن انظروا للساحر العجيب . . قارئ الأفكار وصانع الأعاجيب . انظروا من أى الأبواب الأربعة سأخرج ؟

أصوات : من هذا . . أم من ذاك ؟ من هنا . . أم من هناك . .

– من ذاك .

– بل من هنا .

– من هناك . .

الساحر : لن أخرج من أى من هذه الأبواب الأربعة . . ها . . ها . . سأزيح هذه الستارة هكذا . . وأخرج من هذا الباب الجانبى الصغير . .

الملك : أحضروا الورقة . . وانظروا ماذا كتب الخيام ؟
أيها الساحر . . ستخرج من الباب الخامس !

أصوات : ساحر . . ينتصر على ساحر الملك يسحر مثله . .
قارئ الغيب . . قرأ أفكار المهرج . . ورد كيده وكشف مكيدة

علماء القصر الحاقدين عليه . .
إنه لجدير حقًّا بلقب فلكى العرش . .
اجلدوا المهرج الذى تطاول على فلكى الملك . .

الملك : يا أستاذ النجوم . . لقد قرأت أفكار هذا المهرج . . املئوا فمه ذهباً . . واحشوا فم المهرج رملا وحصى . . وهات الشعر والغناء فقد صاح ديك الصباح . .

الخيام اتسمع الديك أطال الصِياحْ
وقد بدا فى الأفق نُور الصباحْ
ما صاحَ إلا نادِباً ليلةً
ولَّتْ من العمرِ السريعِ الرَوَاحْ

* * *

وإنما بالموت كلٌّ رهينْ
فاطربْ فما أنتَ فى الخالدينْ
واشربْ ولا تحمل أسى فادحاً
وخلِّ حملَ الهمِ للاحقِينْ

* * *

رأيت خزافاً رحاهُ تدورْ
يجد فى صوْغ دِنانِ الخمُورْ
كأنه يخلط فى طينها
جُمْجمةَ الشاةِ بساقِ الفقيرْ !

عندما تأفل النجوم :

عمر : والآن . . لم يبق غير ياسمين . . أسرع يا جفرق لنطير إليها . .

جفرق : لقد نلت كل شيء يا سيدى . . اللقب والمرصد والثروة . . وانتصرت على العلماء ومكيدتهم بالأمس . . ولن ينسوا لك ذلك أبداً وويل لو وقعت بين أنيابهم . .

عمر : طر أنت إلى ياسمين . . لتلقانى عند النهر . وسأذهب للسوق لأشترى لها أجمل ثوب زفاف . . وأنصبها ملكة على عرش النجوم .

* * *

عمر : لم تأت ياسمين . . ما الذى عوقها . . ما كانت لتخلف موعداً قط . .

جفرق : ولن تأتى يا سيدى أبداً . .

عمر : ماذا تقول لن تأتى أبداً . . إنها تهب مثلى عمرها كله لهذا اليوم .

جفرق : ولقد جاء هذا اليوم . . ولكن يا سيدى لا لكما بل عليكما . .

عمر : بماذا تهذف يا جفرق . . قل ما عندك . . هل حدث مكروه لياسمين ؟

جفرق : وأى مكروه أشد وأدهى من زوج دميم بدين جاهل عظيم الثراء .

عمر : زوج دميم جاهل . . لمن . . لياسمين ؟

جفرق : نعم يا سيدى . . زوجوها لتاجر بهر أباها الجشع بماله ومهره . . فعمى عن دمامته وجهله . . ولم يعبأ بدموعها ورفضها . . .

عمر : كيف ؟ ومتى كان ذلك . . وأين ؟

جفرق : فى يوم وليلة . . مر بقافلة فى طريقه إلى حلب . . وتوقف فى نيسابور ليشترى من أسواقها ويبيع . .

عمر : فاشترى أجمل ما فيها . . اشترى ياسمين ؟

جفرق : صدقت اشترى ياسمين . . وأقاموا زفافاً سريعاً وحملها وراءه وسار كغراب مشئوم انقض على حمامة بيضاء وطار . .

عمر : أمتأكد أنت يا جفرق . . ربما ليست ياسمين ! !

جفرق : لقد حضرت زفافها . . وأكلت أرزا وحلوى وشربت نبيذاً . .

عمر : أى قدر هذا . . أحقق كل شىء . . فافقد أغلى شىء ! إن رأسى تدور . . وساقىَّ لا تحملانى . . وعينىَ . . لا تبصران ! . .

جفرق : ماذا دهاك يا سيدى . . إنك تكاد تسقط . .

عمر : أحس بالدوار . . أحس بالنار تشوى جسمى كله . .

جفرق : استرح يا سيدى . . إن يديك تلتهبان بالنار . . وجبينك يتفصد عرقاً . . إنها الحمى . .

عمر : بل الحمى . . لفقد ياسمين . . لا عليك أنت جدَّ فى أثرها وعد بأخبارها . .

جفرق : لن أتركك يا سيدى فى هذا الإعياء . . وما جدوى أن أنطلق فى أثرها . .

عمر : لا ترهقنى أكثر يا جفرق . . وافعل ما أقول . . خذ ثوب الزفاف هذا . . والحق بها . . فقلبى يحدثنى أنها فى بلاء شديد . . .

جفرق : أتعرف الغيب يا سيدى ؟

عمر : إنما أحس بالأشياء فقط يا جفرق . . إنها أشبه بظبى مذعور فى يد

صياد بلا قلب . . ستذوق كمداً قبل أن يمد لها السكين . .

جفرق : وأتركك فى حالك هذا ولا من يرعاك . ؟

عمر : لا بأس إنها من أثر المفاجأة . . وتزول . . ذهب وعد على جناح السرعة . . ففى ذلك شفائى . . .

نار الهوى تمنع طيب المقام
وراحة النفس وبرد الصحة
وفاتر الحب ضعيف الخطى
منطفىء الشعلة خبى الغرام

* * *

عمر : أعدت يا جفرق ؟ . . ماذا وراءك . . أما من خبر عن ياسمين ؟

جفرق : نعم لدى خبر عنها . . هذا السوار منها لك تذكار ووفاء . .

عمر : وثوب الزفاف أخذته . .

جفرق : نعم . . وقامت برغم الحمى وتزينت ولبسته . .

عمر : أهى محمومة !

جفرق : من يوم زفافها وهى تعانى الحمى . . وضاق زوجها بامتناعها عليه وبعزلتها وبكائها الدائبين .

عمر : وبعد !

جفرق : ودخل عليها فوجدها فى ثوب الزفاف . . وضبط معى السوار . . فطلقها . .

عمر : نبأ عظيم . . وأين هى . . قم لأخطبها من أبيها . . سأدفع كل ما أملك مهراً لها ؟

جفرق : لن يرضى يا سيدى . . ولو دفعت له مال الدنيا . . .

عمر : ولماذا . . لن يرضى يا جفرق ؟

جفرق : لأن ياسمين . . ماكادت ترقد فى بيتها . . حتى . . حتى . . ماتت ! !

عمر : ماتت . . إنك تكذب . . ربما ليست هى . . إن ياسمين لا تموت !

جفرق : وكان آخر ما نطقت به هو اسمك . . وبرج النجوم . . والجواد الأبيض . .

الخيام يا دهر أكثرتَ البِلى والخرابْ
وسُمْتَ كل الناسِ سوءَ العذابْ
ويا ثرى كم فيكَ من جوهر
يَبينُ لو يُنبشُ هذا التّرابْ

* * *

سطا البِلى فاغتالَ أهل القبورْ
حتى غدوا فيها رُفاتاً تَثِيرْ
أين الـصِلِ ؟ تتركنى غـائـباً
أجهلُ أمر العيشِ حتى النشُورْ !

المحاكمة والرحيل :

وكما أقبلت الدنيا على عمر . . تنحسر عنه . . وتتوالى عليه النوائب . . تموت ياسمين فيغرق عمر دموعه فى الشعر . . والشراب . . مزيد من الشعر والشراب عله ينسى . . ويموت الملك الذى قربه . . ويعزل الوزير نظام الملك الذى أحبه . . ويفقد عمر الحبيب والنصير والمعين . . فتنمو عزلته وتنمو ضده الأحقاد القديمة . . ويجد العلماء وأهل الملة الفرصة . . للانتقام من عمر . .

* * *

أصوات : – غياث الدين عمر بن إبراهيم الخيام . .

– أنت متهم بإثارة العامة والاشتغال بعلوم السحر والنجوم .

– وناديت بدوران الأرض وثبات السماء . . وقارعت حجة الإسلام الغزالى فى ذلك وأثرت العامة . .

– وكتبت رسالة خطيرة فى الكون . . وأخرى فى الوجود . . وثالثة

– ورابعة . . وخامسة . . فى الرياضيات والفلسفات . .

– وانتشرت هذه المختصرات والفلسفات بين طلبة المسكة فأفسدت عقولهم .

– واخترعت تقويماً جديداً عمل به الملك . . وألغى تقويم البلاد . .

– وسخرت بالعلماء وأهل الملة حين دعوتهم لمرصدك . . وأجريت أمامهم من التجارب ما يعتبر مروقاً وكفراً من حظيرة الدين . .

– وكتبت رباعيات تناقش فيها القدر والغيب وتدعو إلى الخمر والتمرد على الوجود . .

– ولقد حكم عليك المجلس بالآتى :
يحرق مرصدك المسحور . . بما فيه من كتب وأوراق وآلات وأثاث . .
– تصادر ثروتك وتجرد من جبة الشرف . . واللقب والرواتب . .
– يحاكم كل من يقرأ رسائلك أو يشدو برباعياتك . .
– تطرد من نيسابور ولا تدخلها أبداً . .

الخيام : « لكم أخاف عليك من القدر والعلماء والنبيذ . . ! » صدقت يا مرآة الحكمة . . لم يبق إلا النبيذ . . والشعر . . والرحيل . .

خـلـقـتنى يـارب مـاءً وطـيـنْ
وصُغْتنِى ما شئت غرًّا رَهِينْ
فما احتيالى والذى قد جرى
كتبتهُ يارب . . فوق الجبينْ ؟

* * *

الرسول : أهذه هى القافلة المتجهة إلى الشام . ؟
الخيام : نعم . . هى . . لماذا ؟
الرسول : وهل بها الشاعر الفلكى عمر بن الخيام ؟

الخيام نعم أيها الرسول . . أنا هو . . فماذا تريد ؟
– إن معى كتاباً من الملك الجديد . . ومكلف بأن أصحبك إلى بلاطه معززاً مكرماً . . بعد ما لحق بك من أذى وكيد . . هاك الكتاب . .

عمر : خل الكتاب معك . . واكتب ردًّا له سأُمليه عليك . .

الرسول : — أو تعرف ما فيه دون أن تفضه ؟

عمر : نعم يا بنى . . قرأت ما فيه إن التاريخ يعيد نفسه . . والخليفة الجديد يريدنى لأقرأ له النبوءات وأقارع المهرجين فى حضرته . . وأرصد له النجوم وأتصدى للعلماء .

الرسول : — إذن أنت ساحر كما يقولون . . تقرأ السطور دون أن تفضها

عمر : بل شاعر يا بنى . . شاعر فقط . . أحرقوا كل شىء . . ولكنهم لم يستطيعوا أن يحرقوا هذا الشىء أبداً . .

الرسول : — أبقى شىء لم يحترق ؟ !

عمر : نعم . . ولن يحترق أبدا لأنه فى صدرى . . وليس فى كتاب . . إنه الشعر . . ملاذى الوحيد والأخير . . اكتب أيها الحارس خليفتك هذه الكلمات فهى ردى عليه . .

يا من يحار الفهم فى قدرتك
وتطلب النفس حمى طاعتك
أسكرنى الإثم ونسكنى
صحوت بالآمال فى رحمتك
يا عالمَ الأسرار علم اليقينْ
وكاشف الضُّرِّ عن البائسينْ
يا قابلَ الأعذار عذرًا إلى
ضُقت . . فاقبل توبة التائبينْ

يناير ١٩٧٢

حاتم الطائى

عاشق الكَرَمْ . .

أُضاحك ضيفى قبل إنزال رحلِه
ويُخصب عندى والمحلُ جديبُ
وما الخَصْبُ للأضيافِ أن يُكثرُ القرى
ولكنما وجهُ الكريمِ خصيبُ

حاتم

* * *

وإنى لعبدُ الضيف ما دام ناوياً
ولا شيمةٌ لى غيرها تُشبهُ العَبْدا ! !

المقنع الكندى

حاتم الطائى

هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائى . .

من أشهر أجواد العرب ومن أفحل شعرائها . .

طلق اليد واللسان وسمح القلب والبيان ثابت القدم والجنان .

صارم السيف شديد الوثبة بعيد الغارة عريق المبدأ والخلق يحمى الجار والضعيف ويأوى المستجير والغريب .

ينحدر من طيئ قبيلة الشعر والفروسية والجود أعرق بطون العرب .

يقول ابن قتيبة فى عيون الأخبار : . .

«كان حاتم جواداً شاعراً . وكان حيثما نزل عرف منزله .

وكان ظفراً إذا قاتل غلب وإذا غنم أنهب وإذا استل وهب وإذا أسر أطلق .

وكان قد أقسم ألا يقتل واحد أمه أبداً» .

ويقول صاحب العقد الفريد :

« الذين انتهى إليهم الجود فى الجاهلية ثلاثة نفر :

حاتم الطائى وهرم بن سنان وكعب بن مامة الأيادى

ولكن المضروب به المثل : حاتم وحده »

وعاش حاتم فى الجاهلية ومات سنة خمس وأربعين قبل الهجرة وهو القائل :

وقائلةٍ أهلكت بالجوع مالنا
ونفسك حتى ضرَّ نفسك جُودُها
فقلت دعينى إنما تلك عادتى
لكل كريمٍ عادةٌ يستعيدُها . .

البدايـــة

عبد الله : أى ولدى حاتم . . لقد آن موعد رحلة الشتاء وسأشد الرحال لبيع والشراء . وإنى لأستخلفك على مالى وإبلى وعشيرتى . فكن نعم الخلف والمؤمل . . وضع كلامى فى أذنيك واعمل به ولا تغفل عن أمرك .

حاتم : على بركة الله فى سفرك أيها الوالد الكريم ترعاك السلامة فى الذهاب والإياب .

الوالد : إنى لأعلم مقدار إقدامك وجودك فلا تكن أخرق اليد مبسوط الكف حتى لا يعضك الفقر بنابه . فالفقر مذلة والسؤال مهانة ولا تكن شح اليد بخيلا كنوداً فيلحقك سوء الذم . . وكن بين هذا وذاك تحفظ مالى وتستر غيبتى .

حاتم : أعدك أن أكون موضع حسن ظنك ومحل ثقتك وأن أكون ولدك الذى تفاخر به وتباهى يا أبتاه . . فارحل على بركة الله . .

* * *

حاتم : يا يسار . . أيها الغلام .

يسار : مولاى حاتم . .

حاتم : إن للريح صفيراً فى البيد وللبرد أنياباً . أقسى من الجوع فأشعل ناراً كبرى أجعلها أكبر من جفنة عبد الله بن جدعان التيمى التى كان يأكل منها القائم والراكب على البعير . . .

يسار : والتى وقع فيها ابنه فغرق فى بحر من مرق وثريد . . يا سيدى . .

حاتم : ليس لدينا أبناء بعد ليقعوا فيها يا يسار . . فليقع فيها إذن من الإبل والغنم ما يملأ بطون الجائعين والضيوف وليهتد بها كل من ضل الطريق فى هذا الليل البهيم .

أوقد فإن الليلَ ليلٌ قُرٌّ
والريح يا غلامُ ريحٌ صِرُّ
علَّ يرى نارك من يمرُ
إن جلبتْ ضيفاً فأنتَ حرٌّ

يسار : أتعتقنى يا سيدى . . إن جلبت نارك ضيفاً ؟

حاتم : أعتقك يا يسار وتصبح حرًّا طليقاً .
أما أنا فلا أعتقك أبداً يا سيدى . . وسأظل غلامك إلى الأبد . . .

* * *

أصوات : – انظر أية نار تلك التى تطاول الجبل وتضئ ظلام الصحراء ؟
– نار حاتم . . أشعلها ليهتدى بها العابرون . . ويقبل الضيفان .
– إن رائحة الشواء تملأ خياشيم الصحراء كل ليلة حتى أنخمت الكلاب وسمنت الذئاب . .
– أوشك حاتم أن يأتى على الإبل والبعير لكثرة ما ينحر كل ليلة . .
– لم يبق فى الحى جائع ولا مقرور . . بفضل حاتم . .
– لم تنقطع مائدة حاتم منذ سافر أبوه وإنها لتتسع ويفيض منها الطعام .
– لقد بلغ من كرم حاتم ألا يقدم لضيفانه وجيرانه طعاماً أكل منه من قبل .
– ولذا ينحر كل ليلة الذبائح ويعطى العطايا حتى لهج الناس باسمه وسيرته . .

* * *

يسار : سيدى حاتم . . إن الإبل والشياه تتناقص يوماً بعد يوم حتى كادت تنفد

حاتم : هون عليك يا يسار . . واذبح وانحر ولا تحجب أحداً عن القرى . .

يسار : لم يبق سوى القليل . على كثرة توافد الضيفان . .

حاتم : كف عنى يا يسار . . وانظر ضيوفنا الليلة من كبار الشعراء . . النابغة وبشر وعبيد بن الأبرص . . اذبح لكل منهم ناقة وقسم

بينهم ما أملك من مال وإبل وخيل وشاة حتى يلهجوا بذكرنا عند العرب . .

* * *

أصوات : منذ سفر عبد الله . . وحاتم على عهده هذا . . يطعم ويجير ويغدق العطاء وما كان أبوه كذلك . .

— ترى ماذا سيقول عبد الله عندما يعود من سفرته وقد رأى كل إبله وقطعانه رماداً فى النار . . والبطون . . ؟

* * *

أبو حاتم : لا راغية ولا ثاغية لا ناقة ولا جمل لا شيء إلا جواد حاتم . . أين الإبل والغنم إذن ؟

حاتم : لقد اشتريت بها كنزا عظيماً يا أبتاه سيبقى لنا أبد الدهر . .

عبد الله : نعم ما فعلت يا حاتم . . أين هو ذاك الكنز وماذا يكون ؟

حاتم : اشتريت لك بها طيب الأحدوثة . . وحسن الذكر وخلود الصيت . . إن الأجيال كلها ستذكر اسم طيئ . . وتتغنى بكرمها وسيخلد الشعراء ذكراها وذكراك .

عبد الله : أى شعراء يا حاتم . . وأى خلود . . وأية أجيال ؟

حاتم : لقد كللت رأسك بتاج الكرم . ونحرت وأطعمت وأغدقت ما بقى لنا على مائدة الشعراء الذين نزلوا ربوعنا فى طريقهم إلى النعمان . . ابن ماء السماء وسيكتبون فيك البطولات . .

عبد الله : شعراء . . وكرم . . وخلود أيها الأحمق . . أراك أضعت المال وبددت الثروة

حاتم : ألا تعرف سادة الشعر أمثال النابغة الذبيانى الذى يقول :

كلينى لهم يا أميمة ناصبِ
وليل أقاسيه بطئ الكواكبِ
تطاول حتى قلت ليس بمُنقضٍ
وليس الذى يرعى النجوم بآيبِ

وعبيد بن الأبرص الذى يقول :

وكل ذى غيبة يؤوبُ
وغائب الموت لا يؤوبُ
من يسأل الناس يحرموه
وسائل الله لا يخيبُ

والثالث بشر أبى خازم الذى يقول :

وقد نَغْنَى بنا حيناً ونَغْنَى
بها والدهرُ ليس له دَوامُ
ليالى تَسْتبيكَ بذى غُروبٍ
كأن رضابهُ وهْناً مُدامُ

عبد الله : لعن الله شعراءك أيها الولد المارق . . خالفت نصحى وبددت مالى . . ولو عاشرتنى لأنزلت بى القحط والفقر . . اذهب لا تضمنا عيشة واحدة أبداً . .

حاتم : يا أبى لقد فعلت ما فعلت قريرا راضياً . . وسنذهب نحن وتبقى قصائد الشعراء وأحاديث الناس . . وسيرورة الكرم . .

عبد الله : لا أسمع منك . . ولا أراك . . ارحل عنى . . واغرب عن وجهى

فما أنت إلا مجلبة للفقر إن بقيت . . .

حاتم : لك الأمر يا أبى وعلى الطاعة سأرحل مقهوراً لفراقك . . ولن يقر لى سيف ولا قلب إلا إذا عدت بالمال والثراء الكبير . .

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى
فكلتاهما يُسقى بكأسيها الدهرُ
فما زادنا بُغْضاً على ذى قرابةٍ
غِنانا . . ولا أزرى بأحلامنا الفقرُ

يسار : رحم الله سيدتى غنية بنت عفيف . . وسامح الله سيدى عبد الله

حاتم : ما الذى ذكرك بأمى يا يسار . .

يسار : كانت تحب الكرم وتعشق العطاء على عكس حرص سيدى عبد الله . .

حاتم : لقد ورثت كرمها . . ولم أرث حرص أبى . . ولقد عضها الجوع مرة فأقسمت ألا تقبض يدها فى وجه أحد . . وإنى لأحفظ شعرها وأتمثل دائماً قولها :

لعمرك قد ما عضنّى الجوع عضةً
فآليْتُ ألا أمنع الدهَر جائعا
فقولا لهذا اللائم اليوم اعفنى
وإن أنتَ لم تفعلْ فَعُضَّ الأصابعا

– ورحل حاتم وحده . . يطوف بأرجاء الغبراء فارساً مغامراً . . تاجراً يحالفه النجاح والسبق ويقبل عليه الثراء والمال . . ويعلو صيته وتتمنى القبائل لو صاهرته وزفت إليه أجمل

عذارها . . ويعود بقافلة كبيرة محملة بالكثير ومعه صاحبه يسار يتحاوران . . .

يسار : آه لو رأى سيدى عبد الله . . قوافلك وبعيرك ومالك لعرف أنى ابن كريم عظيم أنجب . . لابد أن الريح طارت بذكرك إليه . . .

حاتم : وستعلوننا مرة أخرى . ولن يغضب هذه المرة من تبديد المال . . .

يسار : إنه مالك وأنت حر فيه . . لقد ظفرت بكل شيء يا سيدى . . ولم يبق إلا شيء واحد .

حاتم : وما هو يا يسار ؟

يسار : زوج لك . . تؤنس وحدتك . . وتنجب لك الولد وترعى ثروتك وإن بنات طيئ لتتمنى كل منهن أن تكون لها بعلا . . . .

حاتم : ولكنى غير راغب فى الزواج من بنات قبيلتى . . فإننى سمعت الناس يتناقلون الأحاديث عن جمال ماوية بنت عبد الله وعن رجاحة عقلها حتى صبوت إليها .

يسار : إن قوم ماوية لمن أشراف العرب وإن خطابها كثيرون وعلى قدر مكانتهم لم تقبل أحداً منهم بعد . ولكن غير هؤلاء جميعاً .

حاتم : فلنقصد ديارها ونخطبها من أبيها .

عبد الله ينادى ماوية : يا ماوية . .

ماوية : لبيك يا أبتاه . .

الأب : إن خطابك يا بنيتى لا ينقطعون عنى . . وأنت على حالك من الرفض وأنا لا أرضى بإرغامك على شيء . . ولكن آن لك أن تحسمى أمرك . .

ماوية : إنك ربيتني يا أبي فأحسنت . . ولكل شيء أوان وأجل وما تعجلت شيئاً قبل حينه . . ولك الأمر وعلى الطاعة . .

الأب : لقد قصدني ثلاثة من أعظم رجالات العرب محتداً وحسباً وجاهاً . . وإني لا أستطيع أن أقطع برأي فيهم . . فكل منهم يفوق صاحبه ذكراً وشرفاً فأعينيني على الخروج من هذا الأمر . .

ماوية : ومن هم يا أبتِ . .

الأب : هذا أوس بن حارثة سيد العرب قاطبة وصاحب الذروة في الشرف والجود والحكمة خلع عليه النعمان حلته الذهبية ولقبه بسيد العرب .

ماوية : أكرم بأوس بن حارثة ماجداً كريماً . . .

الأب : والثاني زيدُ الخيل . . الفارس العملاق الصنديد والشاعر المقل المجيد صاحب الهطال والورد والكميت أشهر خيول العرب وأعرقها . . .

ماوية : أنعم بزيد الخيل ماجداً كريماً . .

الأب : والثالث . . حاتم الطائي وهو من هوكرماً وبذلا وشجاعة وبأساً وشعراً . . بدد مال أبيه كله لشدة كرمه . . فمن تختارين يا بنيتي . . .

ماوية : أختار حاتماً الطائي . . .

الأب : تختارين حاتما ؟ ألا تتعظين من إتلافه مال أبيه . . وطرده إياه ؟ !
ولم آثرتِ حاتماً يا بنيتي ؟

ماوية : يا أبت . . لعلي أصون ماله ، فإن لم أفلح . . فحسبي الذكر وعلو الهامة . . وحسبي أن تعزّيه قبيلتي تميم . . ويكون كلانا أنشودة على

قم الدنيا والناس . . .

حاتم : أيا ابنة عبد الله وابنة مالكٍ
ويا ابنة ذي البردين والفرس الوردِ
إذا ما عملت الزاد فالتمسي له
أكيلاً فإني غير آكلهِ وحدي
أخاً طارقاً أو جار بيتٍ فإنني
أخافُ مذمّاتِ الأحاديثِ من بعدي
وكيف يسيغ المرء زاداً وجارهُ
خفيف المعى . . بادي الخصاصة والجهد
وللموتُ خيرٌ من زيارة باخلٍ
يلاحظ أطرافَ الأكيلِ على عمْد

ويعود ذكر حاتم يوماً بعد يوم . . ينفق ماله ويبدد ثروته . . لا يرد سائلاً ولا مستجيراً . يؤثر الآخرين على زوجه وبنيه . . ويؤثر الكل على نفسه . . تعوِ ناره . . ويكثر ضيفانه ويعم قراه . . حتى يأتيه القاصي والداني فيحمل عنهم الدّيات والدماء . ويتكبد من أجلهم مالا يطيق . . .

عبد قيس : أي حاتم . . لقد وقعت بيني وبين قومي دماء فتواكلوها فحملتها عنهم . . ثم عجزت عنها . . فقلت : لا غيرك من يحملها عني . . وها قد جئتك .

حملت دماءً للبراجم جمةً
فجئتك لما أسمتني البراجمْ

وقالوا سفاهاً قد حملت دماءنا
فقلت لهم يكفى الحمالة حاتمْ
فتى آته فيها يقُلْ لى مرحباً
وأهلا وسهلا أخطأتك الأشائمُ
يعيش الندى ما عاش حاتمُ طيىءٍ
فإن ماتَ قامت للسخاءِ مآتمْ

حاتم : مرحباً . . وأهلا وسهلا . . بعبد قيس فارس البراجمة وشريفها . . لبيك لبيك . هذا مالى فإن وفى بالحمالة كان . . وإن لم يف أكملتها لك . . فلا أحب أن تروع قومك بأموالهم فاذهب بها !

فلاحقٌ عـليك بها فـإنى
رأيت المنَّ يُزرى بالجميلِ
فـآب البرجـميُّ ومـا عـليـه
خفيف الظهر من حملٍ ثقيلِ

ماوية : حاتم أيها الشاعر الكريم . . ألا تنظر أبناءنا وقد كثروا وكبروا . . عبد الله وعدى وسفانة وأنت تنفق باليمين وبالشمال وتدفع مالك فى ديات بنى برجم ولا يجد أولادك القوت . . ولا تفكر فى غدهم القادم . .

حاتم : أماويَّ إن المالَ مالُ بدلتهُ
فـأولـهُ شكـرٌ وآخـرهُ ذكـرُ
وقد يعلم الأقوام لو أن حاتماً
أراد ثراء المال كان له وَفْرُ

ماوية : يا أبا عدى . . العام عام جوع . . اقشعرت له الأرض وضنت المراضع على أولادها ولقد نزل القحط بالديار حتى أيقنا بانهلاك وأنت لا تكف عن كرمك . . حتى ليتضور أولادك جوعاً وبرداً . . وأنت تطعم أولاد غيرك . . و . .

أصوات : — يا أبا عدى . . يا حاتم طيئ . . أهلكنا الجوع . . وعوى الصبية من وطأته كالذئاب ولا مُعول إلا عليك . . فأغثنا . . .

ماوية : هذه جارتنا ومعها خمسة صبية نخاف . . وليس فى بيتك ما يطعم من أبنائك ولا فى حظيرتك شاة واحدة . . فانظر ماذا أنت فاعل أو فاذبح لهم أحد أولادك إن شئت .

حاتم : مرحباً . . مرحباً أعجليهم فقد أشبعهم الله . . يا يسار إلى بالجواد . . بجوادى .

يسار : جوادك يا سيدى . . لم يعد لديك غيره !

حاتم : أسرع وإلا ذبحتك أنت . . أسرع . . ولا تتكلم . . وامش فى الحى بيتاً بيتاً واطلب إلى القوم أن يهبوا إلى النار والشواء . . ولا تترك جائعاً أو مقروراً . .

يسار : انظرى يا سيدتى . . لقد نحر حاتم جواده . . وأقبل الناس يأكلون وجلس هو قرير البال طلق الوجه ينظر ولم يذق منه مزعة واحدة . . بل ذرف دمعه خفية .

ماوية : وإنه والله لأحوج إلى قطعة لحم منا . . لا أدرى يا يسار إلى أى منقلب سيودى بنا سيدك فما يجدى معه لوم . . ولا تطاق فى جواره عيشة . .

حاتم : وعاذلةٍ قامت عليَّ تلومُنى
كأنى إذا أعطيت مالا أضُيمها
أعاذل إن الجود ليس بمهلكى
ولا مخلدُ النفسِ الشحيحة لؤمُها

* * *

ومضى حاتم على سجيته . . يذهب المال ويجيء فلا يبقى عليه . . وعندما يُعوزه القرى يذبح جواده الأثير . ويرحل حاتم للتجارة والمغامرة . . . فيعود مظفراً وافر المال دائماً ولا يلبث أن ينفقه مرة أخرى . وفى إحدى سفراته يقع فى الأسر ويرسل إلى قومه فى طلب الفدية . . .

يسار : سيدتى ماوية . . إن حاتماً وقع فى الأسر وبعثنى لطلب الفدية . .

ماوية : حاتم الفارس الشجاع يقع أسيراً . . كيف ؟ !

يسار : هونى عليك . . لم يهزم أمام منازل له . . وإنما قصده أسير فى أرض بنى عنزة فلم يكن معه مال ففداه بنفسه .

ماوية : وكيف افتداه بنفسه ؟ ! !

يسار : عرفه الأسير فناداه إنى أكلنى الإسار والقمل وأهلكنى الاغتراب عن الأهل . . فاغثنى يا أبا عدى . . .

ماوية : وماذا فعل أبو عدى ؟ !

يسار : قال له لقد عرفتنى وليس معى ما أفك به أسرك . . ولا أرضى أن يقال إن حاتماً تقاعس عن مكرمة فاشتراه من آسريه وقيدوه بدلا منه وجئت لأحضر الفداء . .

ماوية : وبكم افتداه سيدك ؟

يسار : بمائة من الإبل . .

ماوية : ويلى من حاتم . . يفك عثرات الناس ويقتلنى كمداً وفقراً . . خذ الإبل . . وإذا عاد لأطلقنه . . فلا حياة لى معه بعد اليوم . .

مالك ابن عم حاتم : وما الذى يعجبك فى حاتم يامارية فوالله لئن وجد شيئاً ليتلفنه . ولئن لم يجد ليتكلفن . ولئن مات ليتركن ولده عالة على قومه . . ويتركك أرملة بلا مال . . طلق حاتماً ولا تزوج منك . .

ماوية : ومن يطيق حاتماً وهو سادر فى كرمه وإتلافه كل طريف وتالد وقد كبر العيال وعز المال وإن بيدى لطلاقه . .

مالك : أنا خير لك منه وأكثر مالا وحرصاً . . وأنا أمسك عليك وعلى ولدك . . .

ماوية : صدقت . . وإنى سأطلقه . . .

حاتم : انظر يسار . . لقد حولت ماوية باب الخباء من الشرق إلى الغرب . . ومعنى ذلك الطلاق . . أو تطلقنى ؟ ماذا أصبها ؟

يسار : لقد أقسمت على ذلك . . وها هى ذى قد برت بقسمها . . .

حاتم : اذهب وتبين الأمر . . وسأهبط أنا بطن الوادى . .

* * *

يسار : إن سيدى يسألك لم أدرت باب الخباء ؟

ماوية : لقد طلقته وسأتزوج مالكاً ابن عمه وهو أوفر منه مالاً وأعز حرصاً .

يسار : إن على باب الخباء أكثر من خمسين رجلاً نزلوا كعادتهم فى ضيافة حاتم فانظرى كيف يُقريهم مالك !

ماوية : اذهب إليه . . وأخبره أن خمسين ضيفا نزلوا على حاتم فارسل لنا لبنا وانحر لهم ذبيحة . . وانظر إلى جبينه ولحيته فإن هش فاقبل منه وإن ضرب على لحيته فعد ودعه . . .

* * *

: فلما أتى يسار مالكا وجده متوسلا غافياً فأيقظه وأبلغه الرسالة وقال له إنما هى الليلة حتى يعرف الناس مكانك . . فأدخل مالك يده فى رأسه وضرب لحيته وانقبضت أساريره وقال :

اقرأ سيدتك السلام وقل لها . . هذا الذى أمرتك أن تطلق حاتماً من أجله وما كنت لأنحر ناقة ذات شحم لضيفك وما عندى لبن يكفى ضيفان حاتم . . وأبلغ يسار ماوية رسالة مالك . . فطلبت منه أن يذهب إلى حاتم ويقول له ما قاله مالك وينظر ماذا يفعل .

* * *

يسار : سيدى حاتم . تكاثر الضيوف على خبائك يطلبون القرى . . وقد أرسلتنى ماوية لتخف إليهم .

حاتم : لبيك يا يسار . . ومرحباً بالضيوف . . إليك بناقتين سمينتين . . فانحر لهم . . ولا تترك جائعاً فى الحى إلا وتدعوه حتى أوافيك :

وإنى لعبد الضيف ما دام ثاوياً
ولا شيمة لى غيرها تشبه العبدا . .

ماوية : هذا والله . . ما طلقتك فيه . . تترك ولدك وليس لهم شىء . .

وتهب غيرك كل شيء . . والله لن أفارقك أبداً . . ولا حيلة لنافيك . .

* * *

وقال عوانة بن الحكم العالم بالأنساب والشعر :

« كان بين حاتم طيئ وبين أوس بن حارثة ألطف ما يكون بين اثنين فقال النعمان بن المنذر لجلسائه والله لأفسدن بينهما .

قالوا . . لا تقدر على ذلك . .

قال : بلى فقلما جربت الرجال فى شيء إلا بلغته . . »

النعمان : يا أوس . . . ما الذى يقول حاتم ؟

أوس : وما يقول حاتم ؟

النعمان : يقول إنه أفضل منك وأشرف . . .

أوس : أبيت اللعن . . صدق حاتم . . والله لو كنت أنا وأهلى وولده لحاتم لأنهبنا فى مجلس واحد لعظم كرمه :

يقول لى النعمان لا من نصيحة
أرى حاتماً فى قوله متطاولا
له فوقنا باغٌ كما قال حاتم
وأن يدى مما بخلتُ به صِفْرٌ

النعمان : يا حاتم . . ما الذى يقول أوس ؟

حاتم : وما يقوله أوس ؟

النعمان : يقول إنه أفضل منك وأشرف . . .

حاتم : أبيت اللعن . . صدق أوس . . أين أنا من أوس ؟ إن له عشرة ذكور أحسنهم أفضل منى .

يسألنى النعمان كى يستزلنى
وهيهات لى أن أستضام فأُصرعا
كفانى نقصاً أن أضيم عشيرتى
بقول أرى فى غيره متُوسَّعا

* * *

وتمر السنون . . توشك على ألف عام ونصف . . ويذهب حاتم وتبقى سيرته وتخلد ذكراه . . مثلا شروداً فى الكرم والإيثار والنجدة . . والشجاعة والشعر . . ومع حاتم الطائى تخلد ماوية لطول ما تحملت وبذلت . . خلَّدها حاتم بشعره . . وبكرمه . . وبذريته من بعده . .

حاتم : أماويَّ لا يغنى الثراء عن الغنى
إذا حَشْرجتْ يوماً وضاق بها الصدرُ
أماوى إن يصبح صداى بقفرةٍ
من الأرض لا ماء لدىّ ولا خمرُ
تَرَىْ أنَّ ما أنفقت لم يكُ ضرنَّى
وأن يدى مما بخلتُ به صِفْرُ

«مايو ١٩٧٢»

عُرْوة بن الورْد

عاشق الصعاليك

وإنى امرؤٌ عافى إنائىَ شركةً
وأنتَ امرؤ عافى إنائكَ واحدْ
أيهزأُ منى أن سَمنتَ وقد ترى
بجسمى مسَّ الحقِ والحقُّ جاهدْ
أُقسِّم جسمى فى جسومٍ كثيرة
وأحسْو قُراحَ الماءِ والماءُ باردْ

عروة

عروة بن الورد

قال عبد الملك بن مروان :

« من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة ولئن تمنى جدى معاوية أن يصاهره . . فو الله لقد وددت أن أكون ولده . . »

فتى عريق من عبس العريقة . . الصحراء مسرحه ومرباه والشعر زاده ومأواه . . والسيف صاحبه ورفيقه . .

طلق الروح بعشق الهمس بالشعر والجهر بالكبرياء . . جسور القلب لا يكف عن التجوال والمغامرة . . .

فياض العطاء حتى لتنبذه قبيلته لفقره وإسرافه . .

مهيب الكبرياء لا يقبل أن يؤثر أبوه أخاه عليه . . وتعيره قبيلته فيتركها إلى عرض الصحراء .

لم يقف بشعره على طلل ولم يتمدَّح به أحداً . . ولم يرفع سيفه فى وجه ضعيف ومظلوم . . وإنما رفعه فى وجه الظلم والظالمين .

أخذ من الأغنياء البخلاء وأعطى الفقراء البسطاء . . وقاد مسيرة مبكرة من فرسان العرب وشعرائها المعدودين . . ضد القبيلة وضد الإقطاع . .

فزلزل أركان الصحراء . . ذات يوم بعيد من أيام ما قبل الإسلام . .

وكثرت فيه الأسماء والألقاب . .

فهو أبو نجدة . . لأنه ما تخلى قط عن نجدة مستجير . .

وهو مانع الضيم لأنه يؤثر الموت ولا يضام فى حماه أحد . .

وهو أبو الصعاليك . . لأنه قلبهم الحنون . . وقائدهم العظيم . .

هذا هو عروة بن الورد . . الشاعر الفارس والثائر وقد جلس فى رحاب رفقته من الشعراء والصعاليك يطعمون ويتجاورون . .

عروة : أوقد فإن الليل ليل قُرٌ
والريح يا غلام ريحٌ صِرُّ

صخر : أراك تتمثل بحاتم الطائى وتردد شعره . . ولأنت أكثر كرماً وأبعد صيتاً منه ولك من شعرك ما نردده نحن ولا تردده أنت . .

عروة : وأين نحن من حاتم يا صخر . . كان كريماً جواداً وفارساً شجاعاً وحراً وجسوراً وعبداً لضيفه إذا نزل به .

صخر : أو نحن نبخس حاتماً حقه يا ابن الورد . . وإنما نشيد بك كما أشادت العرب به ولك من كرمك وشجاعتك وعلو همتك ما يملأ رحاب الصحراء . . و . .

عروة : رويدك يا صخر . أراك تحتكر الحديث ولا أسمع صوتاً بعد للأعلم

الهُذلى . . وعمر بن براقة وسائر الحفنة . .

الأعلم : أما عمر وسائر الحفنة فيرقبون الطريق ويتولون الحراسة وأما أنا فلا أنكر من حديثكما شيئاً . . ولكن اختلفت معك يا عروة . .

عروة : وفيم الاختلاف أيها الصديق . .

الأعلم : لقد كان حاتم الطائى فى منعة من أهله . . وموضع تكريم وفخر من قبيلته حتى طار صيته فى طيىء بسبب كرمه وشعره . . أما أنت فلاحظ لك مما حظى به حاتم . . .

عروة : لك الله يا أعلم . . ألا يكفيك منعة وحصناً أن أكون بينكم وبين سائر الصعاليك . . وألا يكفيك أن تكون قبيلتى هؤلاء الفقراء الذين يلتفون حولنا فى الصحراء .

الأعلم : صدقت أيها الزعيم . . ولكن قصدت أن أسجل حقيقة ، لقد نبذتك قبيلتك لشدة كرمك وإنفاقك على الفقراء . . .

صخر : ونبذته أيضاً لتشاؤمها من أبيه الورد لأنه هو الذى تسبب فى حرب داحس والغبراء . . فانعكس ذلك عليك . . .

الأعلم : بل إن عبساً أيضاً نبذت عروة علاوة على ما ذكرت لأنها رأت فى نسبها وشرفها ما يعلو على نسب أمه وشرفها فهى من نهد التى لا تطاول عبسا عراقة ومحتداً .

عروة : والله لطالما أوجعنى هذا السبب وأحنى رأسى أمام عبس حتى هجرت أخوالى حين فاض بى . . وقد عيِّرت بهم . . .

وما بى من عار إخال علمتهُ
سوى أن أخوالى إذا نُسبوا نهدُ

إذا ما زادنا المجد فخراً قصّر مجادهم
فأعيا على أن يقاربني المجدُ

صخر : لقد كنا ما عايشت يا عروة . . تشاءمت بقتيبة من أبيك وحقّرت قبيلة أفعاله . . وهو بعض كرمك . ثم زد على ذلك إيثار أبيك أخاه الأكبر عليك فما ذلك من كبرياتك . . .

عروة : وما هذه فلا يا صخر . فيالقدر ما أسدى لي ما ذكرت من أبي . . . ثم يؤثني إيثار أخي عليّ كم أثنى غيره فقد كان أبي يعرف فيمن وفد سألوه مرة لماذا تؤثر الأكبر مع علمه بتفوق عليه دون الأصغر على فضله . . أو تعرفون ماذا قال :

الاثنان : لا . . ماذا قال يا عروة ؟ !

عروة : أشار إليّ وفي عينه نخوة فخر وإكبار وقال :

أترون هذا الأصغر ؟ لئن بقي معي ما أرى من شدة نفسه ليصيرن الأكبر عيالاً عليه . .

الأسود : وهذا فوق أبيك يا عروة . . وهل أنت ذا تصير الأكبر عيالاً لأخيه فقط بل على العرب جميعاً . . ولئك هذا الجيش الكبير من أتباعك والفقراء يعتذون بك عند الشدة فتصنع من أجلهم المعجزات . .

[illegible] : [illegible] هذه الأصوات . . فما نظن ماذا هنالك يا صخر . .

[illegible] : [illegible] كبير يتقدم نحونا ويضخم . . أنعسان . .

[illegible] : [illegible] الصعاليك . . يا أنا الدهاليز لك . .

[illegible] : [illegible] الأصدقاء . . [illegible] الأصدقاء . .

أصوات : أغثنا يا أبا الصعاليك . فقد أجهدنا الجوع ونفد الزاد . . حتى بتنا حول حظيرتنا سياجاً لا نخرج منه أبداً . .

عروة : ولم السياج ؟

الأصوات : حتى لا تأكلنا الذئاب . .

عروة : والله لن تأكلنكم الذئاب ولا الجوع وعروة حى . . هذه ناقتى فاذبحوها وليطعم الجائعون حتى أخرج فأصيب لكم ما تعيشون به أو أموت . . .

أصوات : سلمت يا عروة . . والله لا حياة لنا إلا بك ولا رجاء إلا فيك . . سلمت يا أبا الصعاليك . .

عروة : يا صخر . . يا أعلم . . يا عمرو . . يا قيس يا أبا الطمحان . . يا عمر . . يا فرسان الصعاليك ورجالات العرب . . .

أصوات : لبيك أيها الزعيم . . لبيك . .

عروة : فلتحملوا أسلحتكم . . ولتركبوا جيادكم ولتزحفوا عبر الصحراء . . علّنا نصادف قافلة لغنى شحيح فنعطى منها الفقراء المحتاجين :

أليس ورائى أن أدُبّ على العصا
فيأمن أعدائى ويسأمنى أهلى
أقيموا بنى أمى صدور ركابكم
فإن منايا القوم شرٌّ من الهزلِ
لعل انطلاقى فى البلاد ورحلتى
وشدِّى حيازيم المطيّة بالرَّحل

سيدفعني يوما إلى رَبِّ هجمة
يُدافع عنها بالعقوق وبالبخلِ

* * *

أليس عظيماً أن تلم مُلِمَّةٌ
وليس علينا في الحقوق مُعَوَّلُ
إذا نحن لم نملك دفاعاً بحادث
تلم به الأيام فالموت أجملُ

* * *

صخر : صه يا عروة . . انظر . . حدق أسفل الوادى ألا ترى ؟ !

عروة : من ؟ . . ثلاثة أشباح تركب جيادها وتكاد تنهب الأرض نهباً . . كأنها تقصدنا . .

صخر : ما إخالهم إلا لصوصا وقعوا فى قبضة من هم أشد منهم فتكاً . .

الأعلم : دعنا نشد عليهم شداً فننتهى ونواصل رحلتنا . .

صخر : سمعاً وطاعة . . فليتفرق الرجال . . وليتخذ كل منهم مكمناً ولا يقدم أحدكم على أمر إلا إذا أمر عروة . . .

لقاء الصعاليك :

تأبط شرّا : قليلُ غِرار النوم أكبر همّه
دم الثأر أو يلقى كميًّا مُسفَّعا
يبيت بمغْنى الوحش حتى ألِفْنَهُ
ويصبح لا يحمى له الدهرُ مرتعا

وأيْنَ فتى لا صيْد وحش يهمهُ
فلو صاقحت إنساً لصافحنهُ معاً
وإنى وإن عُمِّرت أعلم أننى
سألقى سنان الموت يرشق أضلعا

عروة : ما أروع هذا الشعر وما أعز نفس قائله . . أتعرف لمن الشعر يا صخر؟ لو صدق ظنى . . فهو لثابت بن جابر صديق الوحوش وصاحب الغول . . فلا يخرج هذا الشعر إلا من جعبته . .

صخر : أتقصد تأبط شراً . . ذلك الذى زعموا أنه تزوج الغول وهابته العرب . . إذن خرج الأسد مع عصابته ليقصدوا لنا بعد أن أعيتهم جبال اليمن وتكاثر عليهم رجالات الجزيرة . .

عروة : لا تتعجل الحكم يا صخر . . فإننى لا أتوقع من الصعاليك السود غدراً ولهم من نبلهم وفروسيتهم ما طار صيته وذاع . .

صخر : صه فقد اقتربوا . . فلنبادرهم قبل أن ينقضوا علينا . .

عروة : لا . . فلتلزموا الصمت حتى نعرف بغيتهم ودعوا الأمر لى . .

* * *

تأبط شراً : وأخيراً وصلنا فهذه هى حظيرة الصعاليك خيث مملكة عروة بن الورد زعيمهم الشاعر الفارس . .

الشنفرى : لقد طال بنا السير يا ثابت . . وأرهقنا الجوع والبرد . . وصدأت سيوفنا فى أغمادها وأرهقها بدورها الظمأ . .

السليك : لعلنا نجد عند أبى الصعاليك زاداً ودفئاً ومأوى . . أو لعل سيوفنا تجد على يديه جلاء وربًّا . .

عروة : مكانكم أيها الرجال . . وحذار أن يتقدم أحدكم خطوة واحدة وإلا أصبته بنبال .

تأبط شرًّا : والله . . لن يصيب النبال سواك أنت ورجالك ولو ملأت بهم وجه الصحراء . . فما نحن إلا شياطين نرمي بأنفسنا حيث شئنا فلا يغرنك قلة عددنا وكثرتكم .

عروة : إذن ما هي بغيتكم أيها الشياطين وإلى أين تقصدون . .

تأبط شرًّا : بغيتنا عروة بن الورد . . ومقصدنا حظيرة صعاليكه .

عروة : ألحرب جئتم أم للسلام ؟

تأبط شرًّا : وهل لفرسان شعراء مثلنا أن يعلنوا حربًا على فارس مغوار وشاعر زعيم وهب نفسه لنجدة الفقراء وإضعفاء . .

عروة : فرسان شعراء . . من أنتم أيها الفرسان الشعراء ؟ وأنت . . أهذا شعرك الذي كنت تشدو به منذ حين . .

تأبط شرًّا : نعم هو شعري . .

عروة : إذن أنت صاحب الغول ثابت بن جابر فارس الصحراء . . وشاعر الوحش ورب السيف والغارة . .

تأبط شرًّا : هو أنا . . فمن أنت ؟

عروة : ومن الآخران ؟

الشنفرى : أما أنا فصاحب لامية العرب الشهير وفيها أقول . . .

أديمُ مِطالَ الجوع حتى أنيلَهُ
وأضربُ عنه الذكرَ صفحا فأذهلُ

وأستّفُ تُربَ الأرض كي لا يرى له
عليَّ من الطوْلِ امرؤٌ متطولُ
ولولا اجتنابُ الذام لم يبق مَشربٌ
يُعاش به إلا لديّ ومأكلُ
ولكن نفساً حرة لا تقيم لى
على الضيم إلا ريثما أتحولُ

عروة : هو أنت إذن غراب الصعاليك وشاعر القوس . . ومدوخ الوحوش . . وعداء القدمين الذى لا يلحق به . . مرحباً بالشنفرى داهية البيداء . .

الشنفرى : ومن أنت ؟

عروة : ومن الثالث ؟

السليك : أما أنا فأحد أربعة تخشاهم العرب . . لم يصمد أمامى أعظم فرسانهم عمرو بن معد يكرب وأنا القائل :

وما نلتها حتى تصعّلكتَ حِقْبةٌ
وكدتُ لأسباب المنيَّة أعرفُ
وحتى رأيت الجوع بالصّيف حرَّنى
إذا قمتُ تغشانى ظلالٌ فأسدفُ
كأن عليه لون بُرد محبَّر
إذا ما أتاه صارمٌ يتسيَّفُ

عروة : هو أنت إذن قرصان الصحراء الذى خبر خفاياها ودروبها واشتهر بخططه وحيله حتى وصفك عمرو بن معد يكرب بأنك الغارة

كالليث الضارى . مرحباً بالسُّلَيْك بن السَّلَكة . . فتى الهيجاء . .

السنيك : ومن أنت . ؟ فإن لك من الهيبة والجلال وصدارة الكلمة ما شد قلوبنا وما نحسبك إلا فارساً كريماً وزعيماً لرجالك هؤلاء . . فمن أنت ؟

عروة : (منشدا)

أقلِّى علىَّ اللومَ يا ابنةَ مُنْذرٍ
ونامى وإن لم تشتهى النوم فاسهرى
ذرينى ونفسى أم حسان إننى
بها قبل أن لا أملك البيع أشترى
أحاديث تبقى والفتى غير خالدٍ
إذا هو أحنى هامه فوق صُبَّرِ
ذرينى أطوِّف فى البلاد لعلنى
أخلِّيك أو أغنيكِ عن سوءِ محضرِ
فإن فاز سهمٌ للمنية لم أكن
جزوعاً وهل عن ذاك من متأخَّرِ ! ؟

تأبط شرًا : أنت عروة بن الورد . . زعيم الصعاليك . . بغيتنا ومقصدنا وهذه هى حظيرتك تضم فرسان العرب وفقراء البادية ولقد نهبنا الصحراء نهباً لنلوذ بها وبك . . .

عروة : مرحباً مرحباً بالصعاليك الأبطال . . فبكم تقوى شوكتنا ولقد سبقتكم قصص غزوكم وبطولاتكم التى أكبرناكم بها . . وإن

مكانكم بين إخوتكم من فرسان العرب وصعاليكها على الرحب والسعة . .

تأبط شراً : إن الصلة بيننا عريقة عميقة يا عروة . . فلقد نبذتك عبس لإنفاقك على الفقراء ونصرتهم . . ونبذت القبائل سائر الصعاليك لفقرهم ولأن منهم من لا يساوى عنزة . . ونبذنا نحن لسوادنا ولا ذنب لنا فيه . .

الشنفرى : بل لقد أطلقت على قبيلتى هذا اللقب لسوادى وغلظة شفتى . . وأنزلتنى منزل الخادم لا السيد حتى لقد لطمتنى الفتاة السلامّية البيضاء لأننى تجرأت على التحدث إليها فخرجت على القبيلة من يومها . .

السليك : ولقد استهانت قبيلتى بى لسوادى فنسبتنى إلى أمى وأنكرت على حقوقى وكان لهم التجارة والثراء ولنا الرعى والإبل والحلاب . . .

تأبط شراً : ولقد حملت بى أمى كرهاً ووضعتنى كرهاً ومات أبى عنى بلا عائل فشببت وحيداً وصادقت الوحش ولم يفارقنى سيفى قط وكلما سألوا أمى عنى قالت . . تأبط شراً وخرج « فغلب على الإسم وعرفت به » . .

عروة : ولكنك تربيت فى حجر زوج أمك أبى كبير الهذلى وهو من هو شعراً وفروسية وصيتاً . .

تأبط شراً : والآن لقد زادنى ذلك شقاوة وأسفاً . . فقد هالنى أن يحل مكان أبى آخر . . وكنت أعد نفسى لأعز أمى وأكرمها ولكنها أبت أن تعيش بلا بعل وفرحت بمصاهرة فارس هذيل وشاعرها .

عروة : وإن فى ذلك لفخراً لك أيضاً . فأبو كبير ليس بالوضيع ولا بالفقير . .

تأبط شرًّا : واللات ما زادنى ذلك إلا ضراوة وشقاوة فأرانى أبو كبير الويل وكلت له من نفس الكيل وظل يُوغر صدر أمى ضدى حتى قالت له ذات ليلة احتل عليه واقتله . .

عروة : وهل قتلك حقاً ؟

تأبط شرًّا : لقد أعيته الحيلة . . فقد أضمر لى الغدر ذات ليلة وخرج بحجة أن أصحبه فى زيارة له حتى إذا حان النوم وظن أنه غلبنى رمى بحصاة فانتفضت يقظاً فزعم أنه سمع صوتاً فطفت بالإبل فلم أجد شيئاً . .

عروة : إذن رماها ليستوثق من نومك . . هل كنت نائماً حقًّا ؟

تأبط شرًّا : ما نمت قط . . ولو غلبنى النوم . . نمت بعين واحدة وأحدق بالأخرى كالذئب .

عروة : وماذا صنع أبو كبير إذن ؟

تأبط شرًّا : عدت للنوم . . وكرر ما صنع . . وتناوم . . فقمت كالليث الضارى وسيفى بيدى وركلته بقدمى صائحاً وأقسمت لأن ينبنى شيء لأقتله . . فوالله ظل قائماً على رأسى طول الليل يحرسنى مخافة أن ينبنى شيء فأقتله . .

عروة : لقد روعت الرجل . . ولقد وصف ذلك فى قصيدة يشيد بك فيها . .

تأبط شرًّا : نعم قال قصيدته التى سادت بين الناس :

ولقد سريتُ على الظلام بمغنمٍ
جلدٍ من الفتيان غير مثنَّلِ
فإذا نبذتُ له الحصاة رأيته
ينزو لوقعتها نزوَّ الأخيلِ
ما إن يمس الأرض إلا منكبٌ
منهُ وحرف الساق طيَّ المحمَّلِ
صعب الكريهة لا يُرام جنابة
ماضي العزيمة كالحسام المِفْصَلِ
وإذا نظرت إلى أسرَّةِ وجهه
برقت كبرقِ العارضِ المتهلِّلِ

عروة : لقد رسم لك صورة رائعة يا ثابت واعترف بك فارساً وفذاً وشجاعاً . . كما رسم ابن معديكرب صورة كريمة للسليك فقال :

له هامةٌ ما تأكل البضَّ أمها
وأشباح عادىٍّ طويل الرواحبِ

السليك : وهل وصفني عمرو . . إلا بعد أن تقارعنا بالسيوف فوجد فيَّ ما لم يجده فيها جندل وصرع من فرسان . .

تأبط شرًّا : نحن إذن على طريق واحد . . أنتم في دياركم نقاوة العرب . . ونحن خلو منها لأننا سود . . وأنتم منبوذون من قبائلكم لأنكم فقراء . .

عروة : نعم لأننا فقراء وهم يحتكرون لأنفسهم كل شيء ولا يتركون لنا سوى الفتات .

تأبط شرًّا : لهذا خرج ثلاثتنا نحن الأغربة كما يسموننا . . ونحن الذؤبان

كما يصفوننا شاهرين سيوفنا ضد العنصرية وضد عقدة اللون فلا فرق بين أسود وأبيض ودم . . ودم . .

عروة : وكذلك خرجنا نحن شاهرين السيوف ضد الطبقية وضد عقدة المال وإقطاع القبلية . .

تابط شرًّا : لقد بلونا الكثير يا عروة . . حر الصحراء اللافح وبردها الرهيب واضطهاد القبائل لنا وتعقبها أثرنا . . واخترعنا من الحيل وأساليب الدهاء ما أعاننا على الصمود بجانب الكر والفر . .

عروة : ليس بالسيف وحده يكون الفارس بل بالدهاء والحيلة ولقد فتنّا بألفتك لوحوش والغيلان ومسامرتك إياها وقولك :

لا شيءَ أسرعُ منى ليس ذا عَذَرِ
وذا جناح يجنب الزَّيد خفَّاقِ

* * *

ويسبق وفْد الريح من حيث ينتْحى
بمنْخرقٍ من شدِّةِ المتْدارِكِ

تأبط شرًّا : وهذا السليك لا يخفى عنه موضع بالصحراء ولا شبر فى بيدائها وهو القائم على عملية الإمدادات . . .

فهو يملأ بيض النعام بالماء ويدفنه فى الرمال فنشربه بارداً . . ويدخر لنا الطعام لنجد الزاد عند المغامرة أو نزول القحط بنا وهو رجل من لهب لا يخيب له سهم ولا تحرقه نار ولا تعوزه حيلة . .

أما الشنفرى . . ذلك الأشعث الأغبر غليظ الشفتين الذى لا تعرف له قبيلة ينتسب إليها فهو بلاء على أعدائه يفتن فى تعقب

الوحوش وتقليدها . . لا تثبت قدماه على الأرض فيمشي كما تمشي الضباع والذئاب فلا يعرف متعقبه أثراً له . . .

عروة : وإن قوله لينم عنه . . عندما قال :

وإذا ما أتتنى ميتتى لم أبالِها
ولم تَدْرِ خالاتى الدموعَ وعمتى
وإنى لحلوٌ إن أريدتْ حلاوتى
ومرٌّ إذا نفسى العزوفُ استمرَّتِ

تأبط شرًّا : أما باقى العصبة فهى من تعرف ممن خلعتهم القبائل بغير جريرة مثل حاجز الأسدى وقيس بن الحدادية . . وها نحن أولاء بين يديك . . بعد أن تكاثرت علينا وعليك القبائل وتكتل الأغنياء الظالمون ضد كل ضعيف فقير يأوى إلى حظيرتك . . ونقاتل تحت لوائك فالغاية واحدة . . والظلم مشترك . .

عروة : أقسم أننى ما تمنيت أكثر من هذا وما أروع مسيرتنا وفيها أبطال مثلكم وما أروع مبادئنا وقد اجتمع تحت رايتها الأبيض والأسود والفقير والمنبوذ . . والغنى والفقير . . زحفاً ضد الظلم . . حتى يعرف هذا المجتمع أن الكل سواء . . والحياة حق للجميع لا تفرقة ولا عنصرية ولا طبقية ولا تبعية فإما أن نبلغ الغاية وإما أن نهلك دونها . .

الجميع : نعم إما أن نبلغ هذه الغاية وإما نهلك دونها وإنه لقسم وعهد . .

* * *

وتشهد الصحراء العربية أكبر زحف ضد الاستغلال يضم أعظم

الفرسان والشعراء بقيادة عروة بن الورد يأخذون ممن يملك ويعطون من لا يجد . ينتقمون ممن يضعف ويتصرفون لمن يقع عليه الطغيان . . ثورة وثروة معاً . .

ثورة إنسانية تقوم على العدل والمساواة وتنادي بالحرية والحب والإخاء .

وصفها الدكتور أحمد أمين « بالاشتراكية المبكرة لأنهم لم يكونوا مجتمعاً خاصاً داخل المجتمع الكبير عرفوه كما نقول اليوم بالاشتراكية بل هم أسمى من الاشتراكية لأنهم كانوا يخصون بمال ممن لا يستحقه ثم يتفانون بالقوة هذه لاشتراكية . .

وثروة من الشعر تتميز في العربية بتدفق فريد وتتفرد بالصدق والقوة والإباء . . شعارها قول زعيمهم عروة :

إذا خلٌ لم تملك دفاعاً بحدث
ثلمْ به لأبيه فانهث تحمل

ديسمبر ١٩٧٢

مُضَاض ومَىْ . .

الموت عطشا

أبيتُ أقاسي النجمَ والليل دامسٌ
وللنجم قطبٌ لا يدور مدارُهْ
إذا هاج ما عندى لأول غيرةٍ
علاهُ اشتعال ما يطابق استعارهْ

مضاض ومي

يحكى أن الحارث بن مضاض الجُرهمي آخر ملوك بني جُرْهم من أهل تبجان ملوك الجاهلية . . عاش ثلاثمائة عام . .

مائة منها ملكاً على مكة وماوالاها . . ومائتين هائماً على وجهه شريداً يخبر أخبار القرون الأولى . .

يلتقي الحارس خلال طوافه بأياد بن نزار . . فيجد فيه أنسا لوحشته ورفيقاً لرحلته . .

وكان كلما طافا بمكان أخذ يقص عليه قصته حتى وصلا إلى مكان اسمه « موضع الموت » فيحكي الجرهمي لإياد تلك القصة الجميلة العريقة لأول غرام عنيف عرفته الجاهلية . . وعرفه العرب عامة قبل غراميات عروة وعفراء والمجنون وليلى . وسائر رهط العشاق ممن عاصروا العصرين الأموي والعباسي .

وتبقى هذه القصة سبقاً وأسطورة . . يرويها الجُرهمى على لسان وهَبْ بن مُنبِّه » فى كتاب (التيجان) بأسلوب شيق بسيط يجعلها عبر السنين وثيقة درامية أولى لم تفقد المعاصرة برغم القرون التى مضت عليها وولت . .

* * *

الحارث الجُرْهُمى : أيها الفتى السائر بإبله وقد غمر الضحى وجه البيداء قف لحظة يا ولدى . . .

إياد : لبيك أيها الشيخ المهيب الجليل ؟

الحارث : من أنت ؟ ومن أى القبائل وإلى أين تتجه ؟

إياد : أنا إياد بن نزار بن معد بن عدنان . . وأقصد مكة .

الحارث : احملنى معك فإنى أقصد مكاناً قريباً منها . . وقد نزل بى الإرهاق والتعب

إياد : أمكثتَ هنا طويلا أيها الشيخ الجليل . . مالى أراك أشعث أغبر تدب على العصا . . وتكاد تلامس لحيتك صفحة الرمال

الحارث : أليس ورائى إن تراختْ منيَّتى
لزومَ العصا تُحنى عليها الأصابعُ ؟
نعم يا ولدى مكثت ثلاثمائة عام .

إياد : ثلاثمائة . . عام !

الحارث : نعم . . مائة ملكاً . . ومائتين شريداً

ينشد أُخبِّر أخبار القرون التى مضتْ
أدبُّ كأنى كلما قمت واقعُ

إياد : إذن خبرني . . من أنت . . واقصص علي من أخبار لقرون يا أبتاه

الحارث : أنا الحارث من مُضاض الجُرْهمي آخر ملوك بني جُرْهم على الحجاز ومكة ومدائن ثمود من أهل تيجان أعرق ملوك الجاهلية .

إياد : ومن هم ملوك تيجان هؤلاء أيها الشيخ الجليل ؟

الحارث : كان فيهم الملك جيلا بعد جيل . . وكانوا ممن يعلقون التيجان مثل ملوك الغساسنة والمناذرة وزادوا عنهم أنهم يعلقون التاج يوماً على رءوسهم ويوماً على الرتاج بالبيت العتيق بأسهم وقوة ملكهم . .

إياد : وبعد أيها الشيخ الجليل ؟

الحارث : لا بعد . . يا ولدي . . كانت مأساة . . إذ نزل بنا يوماً تجر من يهود بني إسرائيل فبهره التاج وما فيه من درٍّ ثمين وياقوت وجواهر . . فأراد أن يشتريه . . ورفض الملك . . وتحت ستر الليل غافلنا وسرق التاج من فوق باب البيت العتيق وعلقه يهود على بيت المقدس . .

إياد : وماذا فعلتم أيها الشيخ الوقور الجليل !

الحارث : خرجنا عن بكرة أبينا . . وقهرنا ليهود وعدنا بالتاج . .
ولكنهم احتالوا علينا بالدس والخديعة وتصدت «برّة بنت شمعون» ولم يكن في نساء اليهود مثلها جمالا وقد فتن بها وتزوجها ودست السم في فراش أخي الملك فمات وتحالفوا مع هرقل الروم في مائة ألف ونصرهم أهل الشام بمثلها وكروا علينا وحلت بجرهم الهزيمة وتوالت الأحداث ما بين انتصار وهزيمة حتى فني القوم .

إياد : وأين ذهبت جرهم بعد ذلك . . أيها الشيخ الجليل ؟

الحارث : هدمت بيوتهم وهلكوا وخرجت هائماً على وجهى فى الأرض غماً وحزناً لما نزل بنا حتى مضى علىّ مائتا عام .

إياد : قرنان من الزمان وأنت هائم مغترب ، لقد عمرت طويلا أيها الشيخ الجليل ؟

الحارث : نعم يا ولدى . . عشت ثلاثمائة عام . . مائة ملكاً على مكة وما والاها من بلاد ومائتين هائماً مغترباً مكروبا لما نزل بقومى من غدر ووقيعة .

إياد : وإلى أين أنت ذاهب أيها الشيخ الجليل ؟

الحارث : إلى موطن الموت يا ولدى . . فقد طالت بى السنون وأنا أعايش الجبال والصحارى وآن للرحلة أن تنتهى .

ينشد : لعمرك ما تدرى الضوارب بالحَصَا
ولا زاجراتُ الطير ما اللهُ صانعُ ؟

إياد : وما هو موطن الموت هذا أيها الشيخ الوقور ولماذا سمى كذلك ؟

الحارث : إن لكل مكان هنا اسماً . . ولكل اسم قصة . . وموطن الموت هذا هو تلك البقعة الطاهرة فى الدوحتين والتى تضم رفات أبطال قصتنا « مضاض ابن أخى ومى ابنة عمه » .

إياد : لقد شوَّقتنى أيها الشيخ الجليل لهذه القصة . . فهل يرهقك أن تقصها علينا ؟

الحارث : لا يا ولدى . . بل يسعدنى أن أحكى لك قصة هذا المكان كما حكيت لك عن أماكن أخرى . . فلم يبق فى الجُعبة غيرها . .

فاسمع منى يا إياد .

الحارث : كان مضاض ابن أخى عمرو الملك من تلك اليهودية التى قتلته بالسم سميناه على اسم جده . ولم يكن بمكة ولا ما والاها من بلاد أجمل منه ولا أبهى . . كان شاعراً وكان فارساً .
وكان وسيماً وكان من بنات عمه الملك . . ابنة تسمى " مى " وكانت معه فى نسق واحد وكانت أجمل من رأتها العيون فقتن بها وفتنت به وشبَّا معاً فى حمى واحد وصان مئزره عنها .

إياد : وهل ذاعت قصة حبهما بين الناس أيها الشيخ الجليل ؟

الحارث : لا يا ولدى . . لم تفح لحبهما رائحة ولم يعلم أحد بها حتى بلغ بهما الهوى مبلغه وبرح بهما الجوى وخافا من الفضيحة أو السقم أو الموت وجاءا إلى أن الحارث الجرهمى فشكوا ما نزل بهما . . فقال ابن أخى مضاض وهو يذوب من فرط هواه :

مضاض : ياعم . . لقد تمكن الهوى من قلبى وسلبنى النوم . . ولم أعد أطيق ما بى من لوعة وشوق فجئت إليك لائذاً بك شاكياً إليك . .

الحارث : مرحى مرحى . . يا ولدى . . أَحُبٌّ وجوى ولا شعر يا مضاض ؟ مر وقت طويل ولم أسمع منك شعراً . .

مضاض : لقد كتمت الهوى . . ومعه . . كتمت الشعر حتى لا يقف الناس على ما بينى وبين مى . . ويطير ذكرنا فى الصحراء .

الحارث : إن ميًّا العروس الصحراء . . لا يعادلها فى جمالها وبهائها وعقلها إلا بهاؤك وعقلك . . ثم جاءت إلىّ مى تقول لى نفس ما قال مضاض . .

مى : لقد نشأت يا عم فى الصحراء ولا أعرف إلا مضاضاً ابن عم وحبيب ورفيق . . وصان كل منا هواه حتى فاض بنا الوجد . . فجئنا إليك . . فاحكم بيننا أيها الملك .

الحارث : ورب الكعبة . . ما رأيت اثنين خلق بعضهما لبعض سوى أنت ومضاض . . وإنى لعارض الأمر على أبيك يا مى ليبدى رأيه وقلبى معكما .

الحارث والملك :

الحارث : يا ابن عامر . . يا ابن العم . . لقد ربط الهوى بين مضاض ومى . . وكلاهما منى بموضع فلذة الكبد ، ولقد كتمّا حبهما عن الناس حتى ثقل عليهما فشكوا لى فما قولك ؟

ابن عامر : أيها الملك . . أنت صاحب التاج وأنت وليهما فافعل ما تراه وزوجها منه ولك الأمر . .

الحارث : لقد هجم علينا الشهر الأصم (رجب) ونحن لا نحدث فيه حدثا غير العمرة والطواف فلنصبر حتى ينسلخ رجب وافعل .

ابن عامر : نصبر حتى ينسلخ رجب . . وافعل ما تراه أيها الملك .

فى موكب الطواف :

مضاض : يا مى . . إن انتظار شهر على هوانا كأنه دهر . . وسألتمس العزاء بأن أرحل للعمرة حتى يمر رجب . . وحيث أدعو رب الكعبة أن يجمع شملنا بالزواج .

مضاض : يا بن العم . . أنت ترحل وتطوف تتلمس العزاء والسلوى وأنا أبقى وحدى يسهدنى الشوق ويتلهى بى حنين . .

مى : اذهب يا مضاض ولن أكون إلا لك . .

مى : يا سلمى . . لقد تدبرت الأمر فوجدت أننى لن أقوى على فراق مضاض . . وإنى لأغار عليه غيرة شديدة

سلمى : أغيرة على مضاض وهو فى الطواف والعمرة أياماً لن تطول وأياماً فى حرم البيت العتيق !

مى : نعم . . إن غيرتى عليه لا حد لها . . وإن نساء العرب الطائفات لن يتركن مضاضاً على حاله . . وهن كم تعلمين صاحبات جمال وحسب ونسب .

ولن أطيق على ذلك صبراً .

سلمى : وماذا تعتزمين يا سيدتى ؟

مى : قررت أن أعتمر وأطوف متنكرة فى أثر مضاض على ألا يعلم بذلك أو يرانى . . فدبرى الأمر . .

سلمى : ولكن مضاضاً لو عرف بذلك فقد يغضب . . وقد . .

مى : لن يعلم مضاض بذلك . . ولو علم فذلك أهون على من طوافه وحده وأنا هنا تنهشنى الغيرة كأنها النار تأكل نفسها .

سلمى : لك ما شئت يا سيدتى .

الحارث : واعتمر مضاض وطاف . . وأقبلت مى تعتمر وتطوف غيرة عليه وشوقاً إليه وهو لا يعلم بمكانها . وليتها ما خرجت وراءه . . وليته رآها . . فأرجعها . .

إياد : لِمَ أيها الشيخ الجليل . . ما الذى حدث ؟ . .

الحارث : بدأت أول خيوط المأساة . . على يد قُبَيْس بن سراجْ .

إياد : ومن يكون قبيس بن سراج أيها الشيخ الجليل ؟

الحارث : هو أحد الحقراء الذين يغلى فى قلوبهم الحقد فيصْبُونه سماً وغدراً على الآخرين . . وهو من رهط وضيع الشأن تعلق قلبه بمى وهى لاتعلم واشتعل حقده لحبها مضاض فخرج وراءها . يكيدها كيداً . .

إياد : وكيف عرف بخروجها فى ركب الحجيج ؟

الحارث : كان لشدة تعلقه بمى . . يراعى أحوالها ويراقب سكناتها فلما علم بخروجها خرج وراءها ليقضى لبانته من النظر إليها . . والتطلع إلى جمالها . .

إياد : وهل رأته مى وهو يراقبها فى الطواف ؟

الحارث : كلا يا ولدى . . كان كل فى واديه . . .
مَىْ تطوف وتراعى أحوال مضاض وهو لا يعلم بذلك وقبيس يطوف فى أثر مى وهى لا تعلم بذلك .

* * *

قبيس : انظرْ ميًّا يميس بهـــا الهودج كأنها القمر فى تمامه . . تسلط عيونها على مضاض وهو لاه عنها لا يدرى . . وأنا أموت وجداً وكمداً .

صاحبه : وأنت وحدك الذى يدرى بقتلك الحب الدفين . . وتسترق النظرات إلى مى تكاد تلتهمها وهى لا تدرى . !

قبيس : وهل لى فى ذلك حيلة . . ؟ ملك حب مضاض عليها القلب

والخاطر . . وهو من هو حسباً وبهاء وكلاهما فى دَوْحة الملك أما أنا . . فهيهات لى . .

صاحبه : وأنت يا سيدى . . من دوحة أخرى لا ترقى إلى مى ولا تطاول صاحبها فقيمَ المعاناة والمكابدة ؟

قيس : إنه الحب . حب . تبد بالقلب . . وإنه الإصرار على أن أظفر بقلب مى . . وإن لم أنل ذلك فلن أدع الأقدار تجمع بينها وبين حبيبها مضاض . . وقد تحدث معجزة فيتحول قلبها إلىّ وينصرف عن حبيبها . .

صاحبه : انظر . . إن مضاضاً يحادث امرأة . . وإن ميًّا لتنظر ذلك . .

رقية : أيها الفتى أنت يا مضاض . .

مضاض : من . . رُقَيَّة بنت البهلول . . ليلك يا سيدتى . .

رقية : إن اليوم قائظ والحر شديد . . وقد عطشت عطشاً أخاف منه على نفسى أخشى أن أموت ظمأً فاسقنى جرعة ماء . .

مضاض : هاك الماء يا سيدتى . . فاطفئ ظمأك وارتوى . .

الحارث : ورأت مى . . حبيبها وهو يناول رقية بنت البهلول الماء . . فدبت الغيرة فى قلبها فاشتعل وسقطت مغشيا عليها وجعلت ترتعد وتهذى وهى لا تدرى ما هى فيه حتى نظر إليها الحجيج فقيل لهم عَرضتْ . . أتى نزل بها المرض ومسها عارض !

إياد : ظنوا أن عارضاً مسها فجنت أيها الشيخ الجليل ؟

الحارث : نعم يا ولدى . . ظنوا ذلك . . حتى أدركت مى نفسها . . وعاد لها الرشد فقامت ولم تستطع إكمال الطواف فولت إلى منزل أبيها

بسفح الجبل .

والدها : مى . . ما الذى أتى بك يا بنية ؟ . . هل افترق الحجيج . . وانفض الطواف ! ؟

مى : لم يفترق الحجيج ولا انفض الطواف يا أبى . . ولكن الموت لا يكتم وإليك شكواى فأنت عمادى ورجائى .

الوالد : وفيم الشكوى يابنيتى . . ؟ مالك يا مى ؟ أفصحى .

مى : انصدع قلبى صدعاً لن يلتئم بعد صدعه . . يا أبه إن مضاضاً ابن عمى دعا قلبى فلباه . . فلما أجابه ولباه قذف الهوى خلف النوى .

الوالد : إن بينكما حبًّا شكوتماه إلى الملك الحارث ونظرنا فى أمر زواجكما . . حتى ينصرم رجب .

مى : لن يكون ذلك يا أبه . . فقد رأيت مضاضاً يلاحظ رقية وتهمس له . . ويسقيها الماء ففارقت روحى جسمى فى أسرع من طرفة عين . .

الوالد : أو بينهما شىء يا بنيتى ؟

مى : نعم وإلا ففيم بدل حبًّا بحب وخطرا بخطر ؟ هل يبلغ خطر البهلول أبيها خطرك أنت سليل الملك وعمادالبيت الرفيع .

الوالد : لا يا ابنتى .

مى : وهل يبلغ خطر رقية خطر مى ابنتك ؟

الوالد : ما يكون ذلك يا ابنتى . .

مى : يا أبه . . لن أقيم بموضع يكون فيه مضاض بن عمرو لقد نزعته من قلبى كما تنزع النواة من التمرة وإنى لراحلة غداً إلى دار أخوالى .

الوالد : لك ذلك يا بنيتي . .

مي (تنشد) :

مُضاضٌ غادرتَ الحب والحب صادقٌ
وللحب سلطانٌ يعزُّ اقتدارهُ
غدرتَ وما تغدرْ وللعهد موثقٌ
وليس فتى من لا يقر قرارهُ
أبيتُ أقاسي النجم والليل دامسٌ
وللنجم قطب لا يدور مدارهُ
إذا غاب لم أشهدْ وكان محبه
محـلي . . ودارى حيثُ كان دارهُ
إذا هاج ما عندى لأول غَيْرةٍ
علاهُ استعارٌ ما يضاقُ استعارهُ

الحارث وانتهز قبيس الفرصة وبدأ ينسج خيوط مؤامرته . . فذهب إلى مي . . وأنشأ يلفق لها أخباراً ليفرق بينها وبين مضاض .

قبيس : يا مي رأيت عجباً . . بالأمس في أثناء الطواف . .

مي : وماذا رأيت يا قبيس ؟

قبيس : رأيت مضاضاً واضعاً كفيه على قرون رقية بنت الهبلول وهو يدافع عنها أهل الطواف سائحاً وبارحاً ثم استسقته ماء فناولها بيده فشربت وناولته فشرب . . وأنشدها شعراً . .

مي : أنشأ يقول شعراً في رقية يا قبيس . . ماذا قال ؟ قل . .

قبيس : قال لها وهو يُصعد البصر في وجهها ويمسك براحتيها :

رُقيةُ قلبي قد تباينَ صدْعُهُ
وللحب مني شاهدٌ ودليلُ
رأيت الهوى يهوى وللوصل واصل
فهل لك أن يلقى الخليلَ خليلُ

: وماذا كان من رقية بنت البهلول ؟

قبيس : فعلت مثل فعله . طارحته العشق والهوى وأنشدته شعراً :

مى : وماذا قالت رقية . . قل . .

ينشد : أصون الهوى والطرفُ مني كاتمٌ
ولا يعلّمن الناسُ إذ ذاك ما دائي
سوى أنني قد فُزت منه بنظرةٍ
تجرعتُ عذبَ الحب منه مع الماءِ

الحارث وطار قلب مى لما سمعت والتبستها حمية قول قبيس فجعلت تقبل بين خيام الحى مرة وتدبر أخرى وهى لا تعلم ما هى فيه ثم صاحت بأبيها :

يا أبتاه . . يا أبتاه . .

الوالد : نعم يا ابنتى . . ماذا تريدين ؟

مى : لقد نذرت لله نذرا . . لنرحلن الآن قبل الغد . . حتى لا أرى وجه مضاض أبداً ولا يعرف لنا أثراً .

الوالد : لنرحل يا ابنتى .

الحارث : وجاء رجل من أهل الحى فأبلغ مضاضاً ما قاله قبيس وبما قالت مى . . فركب فرسه وأخذ سيفه وخرج يريد رأس قبيس . .

وأنذره فخرج هارباً فى البيداء .

إياد : وبعد أيها الشيخ الجليل ؟

الحارث : فما أدرى أى أرض انطوت عليه إلى يومنا هذا فر واختفى فى الهواء .

إياد : من ذلك اليوم وإلى يومنا هذا .

الحارث : نعم يا بنى انتهى خبره بفراره . . ولما لم يجد مضاض له أثراً رجع إلى مى . . ولحق بها وهى فى هودجها مرتحلة عن ديارها . . فقصدها وقال وهو يتوسل ويدمع وينشد :

يا مى . . أحقًّا ما سمعت أعيذك بالله أن تغدرى بمن لم يغدر بك ؟
انظرى إلىّ وهأنا أفديك فجودى لمن لم يرتكب فى حقك جرماً .

: يعشى على الناس لحظُ طرفى
وعنكِ يا مى غيرُ عاشى
أتهجـــرينى بـــغير ذنـــبٍ
وتـقـتـلـينى بـغير واشٍ ! !

الحارث : ولكن ميا لم ترق له . . أعمتها الغيرة فلم تُلن لها قلبا وأخذتها العزة فلم ترحم . . فولت عنه وعيناها مغروقتان بالدموع . . وفرت غضبى وتمادى الحى فى الرحلة لرحله . .

إياد : وماذا فعل مضاض أيها الشيخ الجليل ؟

الحارث : مادت به الدنيا ولم يرجع عن مى . . ومضى حتى أتى مكة فغلب عليه الهوى . . ورجا منها عطفاً . . وأعاد عليها موقفه وتعرض لها وأنشدها يقول :

مضاض : علام قبستِ النار يا أم غالبٍ
بنار قبيس حين هاجتكِ نارهُ
على كَبدٍ حرَّى وأنت عليمةٌ
بغيب رفيقٍ لا يَبِينُ خِمارهُ
سألتك بالرحمنِ لا تجمعى هوىً
عليه وهجراناً . . وحبكُ جارهُ
فإن لم يكن وصل فلفظٌ مكانهُ
إليهِ . . وإلا . . موطن الموتِ دارهُ !

إياد : أولم يلن قلب مى بعد ذلك أيها الشيخ الجليل ؟

الحارث : لا يا ولدى . . أعمته الغيرة فلم يبصر . . وتجهمته وولت عنه كما ولت المرة الأولى وقالت له :

مى : يا مضاض . . انتهى ما بيننا فارجع . . ولا ألقاك بها أبداً . .

مضاض : والله لا أشرب بعدها ماء أبداً . .

ومضى مضاض ومعه صاحبان من أبناء عمه يستعطفانه على شرب الماء وهو يأبى ويقول وقد انصدع قلبه وجف لسانه .

مضاض : والله لن أشرب بعدها ماء أبداً .

الحارث : وأقام مضاض يومين وليلتين فلما كان اليوم الثالث أناخ ناقته وأخذ ابن عمه رأسه فى حجره وقد قتله العطش وأوشك على المرت وقال له :

صاحبه : قصفك الدهر يا مضاض . . وأنت أزهى ما تكون شباباً وقوة . .

مضاض : بل . . بل . . قصفنى قُبَيسْ .

الحارث : ثم مات . . وقضت أن من غزواتي فأصبته ميتاً فأقمت له ضريحاً في هذه الصخرة بفضل هذا الوادي .

زياد : وماذا عن مي . . أيها الشيخ الجليل . .

الحارث : أما مي . . فقد تبنت رقية بنت البهول فقالت لها رقية يا مي . . ما كان شأنك ومضاض ؟

مي : أولا تعلمين . . ألم يسقك الماء . . ؟ ويضع راحتيه على قرونك وكفيك ووقفتما تتطارحان الأشعار .

رقية : أتقولين ذلك ! ؟ ورب الكعبة ما كان بيني وبينه شيء من ذلك قط ولا كلمته إلا استسقى منه الماء وبعدها ما رأيته أبداً .

مي : ولم طلبت منه الماء دون سائر الحجيج ؟

رقية : خشيت أن أقف لأهل السقاية وسدنة البيت وأبصرت مضاضاً فناديته لشبيته ومكانته وحسبه ولا غير ذلك .

مي : أو لم يكن بينكما شعر ؟

رقية : والله ما كان بيني وبينه غير استسقائي الماء إياه .

مي : لقد رأكما قيس وأعلمني بما حدث .

رقية : ويلٌ لقيس لقد افترى وخبر بما لم يحدث . . ولقد حدثني تابعه بأنه كان يهواك خفية ويدبر بينكما للفرقة لقد ظلمت مضاضاً يامي .

مي : ويلي . . جنيت على نفسي بيدي . .

يا جارية يا سلمى اذهبي وراء مضاض فقد تعاظم شوقي إليه وأذنبت في حقه أيما ذنب .

سلمى : ذهبت وراء مضاض يا سيدتى .

مى : أو عاد . . أين هو . . حتى أكفر له عن ذنبى . . سلمى . . أين ؟

سلمى : لم يعد . . ولن يعود . . لقد مات مضاض غمًّا منك ويأساً أقسم ألا يشرب ماء أبداً . . حتى مات ودفن بموطن الموت .

إياد : وماذا فعلت مى أيها الشيخ الجليل ؟

الحارث : ظلت ساكنة ساهمة واجمة . . تنظر يميناً وشمالا . كأنها جنت على حين ارتفعت أصوات نساء الحى بالنحيب حتى قالت لها الجارية .

سلمى : يا مى . . أراك هَبلاء . . وقد مات مضاض . . ألا من دمعة . . أو نواح ! ألا تصرخين ألا تندبين ؟ ألا تشقين عليه الجيوب وتهيلين التراب . . أحجرٌ أنت ؟

مى : قسوة أدركتنى فحبست الدمع وفى الدمع راحة لو أصبت إليه سبيلا . . والله لن أشرب بعده ماء أبداً .

تنشد : أيا موطنَ الموتِ الذى فيه قبرهُ
سقتكَ الغوادى السارياتُ الهوامعُ
ويا ساكناً بالدوحتينِ مُغيباً
لأن طرتَ عن إلفٍ فألفكَ تابعُ
والله لن أشرب بعده ماء أبداً . .

الحارث : فأقامت يومين وليلتين فلما كان اليوم الثالث ولا أحد يعلم بها غير جاريتها . سلمى غشيها الموت مع الليل فولت إلى الربوة فلما بلغت أعلاها سقطت وقالت سلمى :
فدفعت لها بجرعة ماء . . فنحّتها بيد واهنة وهى تقول بصوت جف

من الإعياء والعطش :

والله . . لن . . أشرب بعده . . ماء أبداً .

فوضعت يدى على فمها فوجدته كالحجر الصلد ورفعت رأسها إلى بلسان غليظ وصوت خفى قالت لاهثة :

قو . . لى . . لأ . . بى يدفننى بجوار . . مضاض . . بجوار مضاض . . وشهقت شهقة الموت . .

* * *

إياد : وبعد . . أيها الجرهمى ؟

الحارث : لا بعد يا ولدى . . دفنها أبوها كما أوصت بين الدوحتين بجوار مضاض . ولذلك سميت موطن الموت وإليه أقصد يا ولدى .

إياد : ألا أيها النوَّام ويحكمو هبوا
أسائلكم هل يقتل الرجلَ الحبُ
فقالوا نعمْ حتى يرضَّ عظامـهُ
ويتركه حيرانَ ليس له لُـبُّ !

« سبتمبر ١٩٧٢ »

حسَّان بن ثابت

ما إن مدحت محمداً بمقالتي
لكن مدحتُ مقالتي بمحمدِ

عاشــق الرسول

إمامٌ لهم يهديهم الحق جاهداً
مُعلمٍ صدقٍ إن تطيعوهُ تسعدوا
عفوٌّ عن الزّلات يقبل عذرهم
وإن يحسنوا فالله بالخير أجودُ
عزيز عليهم أن يجوروا عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويَعْتدوا
وما فقد الماضون مثل محمدٍ
ولا مثلهُ حتى القيامة يُفقدُ

حسان بن ثابت

حسان بن ثابت

الرحلة الأولى :

مئة وعشرون عاماً . . قطعها أبو الوليد حسان بن ثابت فى دروب الحياة . . ستون عاماً فى غياهب الجاهلية . . وستون أخرى فى رحاب الهدى والنور . . نصف عمره عاشه قبليًّا وثنيًّا ونصفه الآخر عاشه مسلماً مؤمناً . . .

اختلفوا فى تحديد سنة ميلاده . . وأجمعوا على أنها فى منتصف العقد السابع من القرن السادس الميلادى . . .

واختلفوا فى سنة وفاته أيضاً . . وأجمعوا على وفاته سنة أربع وخمسين هجرية وأدرجه الطبرى فيمن توفوا عام ثمانين من الهجرة . . .

ينحدر حسان بن ثابت من أسرة عريقة فى الجاهلية عراقتها فى الإسلام لها نفوذها إبَّان القبلية ولها نفوذها وسبقها خلال الإسلام . .

فأبوه ثابت بن المنذر الذى حكّمته الأوس والخزرج وعملوا بحكمه وعقدوا له الرياسة .

وأخوه أوس بن ثابت أحد الذين شهدوا العقبة من الأنصار وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عثمان . . وأحد الذين شهدوا بدراً واستشهدوا فيها . .

وأخوه الآخر شهد بدراً وأحداً . . وقتل يوم بئر معونة شهيداً . .

ومنا قتيل الشعب أوْس بن ثابتٍ
شهيداً وأسنى الذكر منه المشاهدُ
ومن جده الأدنى أبى وابن أمه
لأم أبى ذاك الشهيد المجاهدُ

كان حسان بن ثابت جاهلياً كسائر الجاهليين يخضع لعاداتهم ويؤمن بما درج عليه الآباء والأجداد . . بل كان أكثر منهم مهابة وحسباً وسخرية وحدة لسان وعزة وخيلاء . . يزهو بلسانه ويختال بشعره . . فيقول : « ما يسرنى به مقول أحد من العرب والله لو وضعته على شعر لحلقه أو على صخر لفلقه » .

لذلك هابه العرب وتجنبوا هجاءه ولذع لسانه الذى يفلق الحجر . . وكان لشدة خيلائه وزهوه يخضب شاربه وما حواليه بالحناء . . ولا يخضب سائر لحيته حتى ليسأله فى ذلك ولده عبد الرحمن :

عبد الرحمن : يا أبت . . أراك تخضب شاربك بالحناء ولا تخضب سائر لحيتك فلم أنت فاعل ذلك ؟

حسان : يا ولدى عبد الرحمن . . إنما أفعل هذا لتعظم هيبتى . .

عبد الرحمن: أو تعظم هيبتك أكثر مما هى . . بأن تخضب شاربك دون لحيتك . ؟

حسان : نعم . . لأبدو وكأنى أسد وألغ فى دم . . فتشتد الهيبة . . .

* * *

على هذا درج أهل الجاهلية فى الهجاء والمديح . . التناحر والتفاخر . . الثارات والبطولات . . الصيد والخمر والشعراء هم فرسان الخلبة والكلمة سلاح . . والقصيدة قذيفة . .

وكانت قصائد الأعشى وزهير وامرؤ القيس تسرى مع الريح فى أرجاء الجزيرة العربية وكانت قصائد النابغة وعلقمة . . تنشر على مسامع ملوك المناذرة والغساسنة وتنثر معها الذهب والجوهر ويرويها الناس . .

فأين كان حسان بين هؤلاء ؟

قال صاحب الأغانى :

« فضل حسان الشعراء بثلاث . كان شاعر الأنصار فى الجاهلية وشاعر النبى فى النبوة وشاعر اليمن كلها فى الإسلام » . .

وقال عمرو بن العلاء : أشعر أهل الحضر حسان بن ثابت . .

وقال الحُطيئة : أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب يقصد حساناً . .

* * *

وبشب ذات عام قتال مرير بين الأوس والخزرج . . وغالت الدماء ولزموا الحصون حتى تنادوا بالصلح .

ولكن بنى النحار قوم حسان تأبى وقف القتال وتشعل رحى الحرب من جديد وترتفع أصوات القبيلتين تهب كل منهما بشاعرها أن يتقدم الصفوف ويشهر أشعاره رمحاً فى صدر الأعداء . .

ويبرز شاعر الأوس قيس بن الخطيم يلهب الجموع فيقول :

تروح من الحسناء أم أنت مُغْتدى
وكيف انطلاق عاشقٍ لم يُزوّد
وجيد كجيد الرئْمِ صافٍ يُزينه
توقد ياقوتٍ وفصل زبرجدِ

ويبرز حسان شاعر الخزرج فلا يشغله الغزل كما شغل رفيقه وإنما يطلق قصيدته أشد وقعاً من النبال :

لسانى وسيفى صارمان كلاهما
ويبلغ ما لا يبلغ السيف مِزْودِى
وإنى لمعطٍ ما وجدت وقائلٌ
لمُوقد نارى ليلة الريح أوقِدى
وإنى لحلوٌ تعترينى مرارة
وإنى لمُرٌّ لما لم أعود
فلا تعجلنْ يا قيس واربعْ فإنما
قُصاراك أن تلقى بكلّ مُهنَّدِ

وروى أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى أن حسان بن ثابت وفد على ملك الغساسنة عمرو بن الحارث ليمدحه فقال له حاجب عمرو ناصحاً ومشفقاً :

الحاجب : لقد سر الملك قدومك عليه وهو لا يدعك حتى تذكر ممدوحك جبلة بن الأيهم فإياك أن تقع فيه فإنك إن وقعت فيه زهد فيك وإن ذكرت محاسنه ثقل عليه .

حسان : وكيف لى . . وجبلة كما يعلم العرب نعم الصديق لى انقطعت إليه

حتى يئس الملك من قدومى إليه . . .

الحاجب : إياك وذكره . . فإن سألك الملك عنه فاخطب وامسح ذكره مسحاً وجاوزه . . وستجد عن يمين الملك للنابغة الذبيانى . . وعن يساره علقمة بن عبدة الفحل وإنى أخاف عليك هذين الشعرين .

حسان : وياهما من شعرين . . الأول تفجر بالشعر وهو فى الخمسين . . فنبغ . . فلقب بالنابغة . . والثانى قارع امرأ القيس فى بائيته الشهيرة فتفوق عليه . . وخلفه على زوجه وسمى بالفحل .

* * *

الملك : مرحباً حسان بن ثابت . . أخيراً . . آن لك أن تزورنا وقد سبقك الشعراء كيف تركت القبائل والبلاد . . . .

حسان : تركتهم كالعهد بهم . . لا يفرغون من قتال . . ولا يكفون عن ثأر أو هجاء .

حسان : وأنت منقطع عن بلاطنا إلى جبلة وهو الأمير ونحن الملوك . . فكيف تمدح جبلة ؟

حسان : إنما جبلة منك . . وأنت منه . . كلاكما فى دوحة غسان الفيحاء . .

* * *

وأنشد النابغة الذبيانى يمدح الملك :

كليني لهمٍّ يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطيء الكواكب

واهتز الحارث طرباً وصاح :

لقد ذهب نصفى يا صناجة العرب . .

وأنشد علقمة بن عبدة يمدح الملك :

طحا بك قلبٌ فى الحسان طروب
بُعيد الشباب عصر حانَ مشيبُ

واهتز الحارث طرباً وصاح :

لقد ذهب نصفى الآخر يا فحل الشعراء :

وجاء دور حسان وأنشد يمدح عمرو بن الحارث ويشيد بمجد بنى غسان :

لله دَرُّ عصابةٍ نادمتهم
يوماً . . بجلَّق فى الزمان الأولِ
الخالطونَ فقيرهم بغنيِّهم
والمشفقون على الضعيف المُرْملِ
يُغشون حتى ما تهرُّ كلابُهم
لا يسألون عن السوادِ المُقْبِل
بيض الوجوه كريمةٌ أجسامهم
شمُّ الأنوف من الطرازِ الأولِ
ولقد شربت الخمر فى حانوتها
صهباء صافيةً كطعم الفُلْفلِ
يسعى علىَّ بكأسها متنطفٌ
فُيعلِّنى منها ولو لم أنْهل

بزجاجة رقصت بما فى قَعْرِها
رقص القُلوصِ براكبٍ مُسْتعجلِ

ولم يزل الحارث يطرب ويتمايل حتى زحف عن وضعه وهو يصيح :

الملك : هذا وأبيك الشعر . . وهذه هى البَتَّارة التى بترت المدائح . . يا غلام أعطه ألف دينار ذهباً وله علينا مثلها كل عام . .

الرحلة الثانية :

هذا هو حسان فى الجاهلية . . يمدح فيطاول الشعراء الفحول . . ويهجو فترتعد من هجوه القبائل . . وينتشر شعره عبر الجزيرة . . ويعلو صيت قبيلته بفضل هذا الشعر . . وتزحف السنون بحسان ويبدأ النصف الثانى من رحلة أعوامه المائة والعشرين فوق أرض يثرب مدينته التى لا ينقطع منها القتال . . ولا تتوقف فيها مؤامرات اليهود . .

يثرب . . ذات الأساطير . . ثانية مدن الحجاز بعد مكة حيث تتجمع التلال والسهول وتتدفق المياه ويكثر النخيل والبساتين والينابيع . . .

يثرب حيث الأوس والقتال الدائم على النفوذ والسلطان والحرب التى لا تخبو لها نار .

يثرب . . حيث اليهود . . يكيدون ويدسون وينسجون المؤامرات ويعملون على إراقة الدماء . . وإبادة العرب مرة بعد مرة . . حتى ضجت يثرب . . ودب فيها الشقاق . . وضاقت الحياة بأهلها وكسدت الأسواق واشتد الخوف والفزع وتلفتت القلوب تبحث عن مخرج من الظلمات إلى النور . . من الخوف إلى الأمن . . من التفرق إلى الوحدة . .

وبعث النبي ﷺ . . وضاقت قريش به وبدعوته . . وكابد فيها ما كابد من تعذيب وتنكيل . . وهفت يثرب إليه . . إلى أن يأسو جراحها ويجمع كلمتها . . ويعيد لها الأمن والأمان . .

وترك رسول الله ﷺ مكة وهاجر حيث النصير والمعين . . حيث القلوب تتلهف إلى العدل والحق والمساواة بعد أن طفحت بالحرب والظلم والفساد . .

لطالما أحس رسول الله ﷺ بالشوق والحنين إلى تلك المدينة . . التي تضم رفات أبيه عبد الله . . وطالما صحب جده عبد المطلب وهو في السادسة من عمره إليها ليزور قبر أمه آمنة بنت وهب وهو في الطريق بين يثرب ومكة . .

إلى يثرب إذن يدفعه الشوق . . ويؤمنه أخوال جده بنو النجار . . وتخرج يثرب كلها . . تستقبل رسول الله وتنشد له . . وتفتح له الذراعين :

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا
جئت بالأمر المطاع

وخرج حسان يستقبل رسول الله ﷺ على رأس قبيلته يفخر بنصرة الأنصار للرسول ويهب شعره للإسلام ولرسوله . . ويبدأ صفحة جديدة في رحلته المديدة .

سماهم الله أنصاراً لنصرتهم
دين الهدى وعوانُ الحرب تستعرُ

وجاهدوا فى سبيل الله واعترضوا
لِلنائباتِ فما خابوا وما ضجروا
فأْتِ الرسول فقل يا خير مؤتمن
للمؤمنين إذا ما عدَّل البشرُ

* * *

عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول عن حسان « لا يحبه إلا مؤمن . . ولا يبغضه إلا منافق » .

وروى صاحب الأغانى : أنه لما كان عام الأحزاب ورد الله الكافرين قال رسول الله ﷺ من يحمى أعراض المسلمين ؟ فقال كعب بن مالك : أنا يارسول الله . .

وقال عبد الله بن رواحة أنا يا رسول الله . .

وقال حسان بن ثابت أنا يا رسول الله . . فقال عليه السلام . . نعم اهجهم أنت فإنه سيعينك روح القدس . .

أكرمْ بقول رسول الله قائدهم
إذا تفرقت الأهواء والشيعُ
قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوهمْ
أو حاولوا النّفع فى أشياعهم نفعوا
أعطوا نبى الهدى والنصر طاعتهم
فما وفى نصرهم عنه وما نزعوا
أعفةٌ ذكرت فى الوحى عفتهمْ
لا يطمعون ولا يُودى بهم طمعُ

لا فخر إن هم أصابوا من عدوهمُ
وإن أصيبوا فلا خوْرٌ ولا جزعُ

وتابع حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ . . رحلته الجديدة فى ظل الإسلام يذود عنه . . ويهاجم المشركين ويشاهد المعارك . . ويشارك فى الغزوات ويرثى شهداءهم أمثال جعفر وحمزة وسعد بن معاذ وزيد بن حارثة ويسجل انتصارات المسلمين فيقول فى بدر :

فلاقيناهمُ منـــــا بجمعٍ
كأسد الغاب مُرْدانٍ وشيبِ
فغادْرنا أبا جهلٍ صريعاً
وعُتْبة قــد تركنا بالجيوبِ
يناديهم رســـــول الله لما
قذفناهم كباكبِ فى القليبِ
ألم تجدوا كلامى كان حقاً
وأمــر الله يأخذ بالقلوب
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا
صدقت وكنت ذا رأى مُصيبِ

ويقول فى غزوة الخندق :

وعدوا علينا قادرين بأيْدهِمْ
رُدوا بغيظهم على الأعقــابِ
بهبُوب مُعْصفةٍ تفَرقَّ جمعهم
وجنود ربك سيد الأربــــابِ

لَولا الخنادق غادروا من جمعهم
قتلى لطيرٍ سُـغَّبٍ وذئـابِ

وتجيء غزوة الفتح . . فينبرى حسان بن ثابت لها بأن يلهب مشاعر الأنصار ويحثهم على الغزو انتقاماً من المشركين حتى تفتح مكة وينتصر المسلمون وينشد حسان فى الغزوة الكبرى . .

عَفَتْ ذات الأصابع فالجواءُ
إلى عـذراء مـنـزلها خلاءُ
عدمنا خَيْلَنا إن لم تروها
تثير النقع موعدها كَداءُ
وجبريـلٌ أمين الله فـيـنـا
وروح القدسِ ليس له كِفاءُ
يُـنـازعـن الأسِنَّـة مصغياتٍ
على أكتافها الأسَلُ الظماءُ
فإما تُـعْرضوا عنا اعتمرنا
وكان الفتح وانكشف الغطاءُ

وتعلو راية الإسلام فوق أرض الجزيرة العربية . . ويتم الرسول على الناس رسالته فيدخلون فى دين الله أفواجاً . .

ويقضى رسول الله ﷺ ويدفن بيثرب فتسمى بالمدينة المنورة . . ويرفرف السلام على الناس وتخلو الجزيرة العربية كافة من اليهود . . وتزهو يثرب بما وصلت إليه من مجد وعدالة وأمن . . وتزحف السنون بك يا حسان . . والمسلمون يفردون له المكانة الكبرى وهو يقطع رحلة الأعوام الطويلة يذود عن الدين ويمجد الشهداء

ويناصر خلفاء رسول الله الراشدين فيعاصر أبا بكر الصديق ويرثيه بعد موته :

إذا تذكَّرت شجواً من أخى ثقةٍ
فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أتقاها وأعدلها
بعد النبى وأوفاها بما حملا

والثانىَ الصادقَ المحمود مشهدُه
وأول الناس منهم صدّق الرسلا

ويقضى أبو بكر . . ويواصل عمر بن الخطاب الرسالة . . وحسان ما زال يحمل راية الشعر الإسلامى بيد لم يرعشها تعاقب السنين . . ويقضى عمر فيبكيه :

رءوفٌ على الأدنى غليظٌ على العدا
أخى ثقةٍ فى النائبات نجيبُ

متى ما يقل لا يكذب القول فِعْلُهُ
سريع إلى الخيرات غير قطُوبِ

مطيعٌ لأمر الله بالحق عارفٌ
بُعيْدَ الأنام عندهُ كقزيبِ

وتقترب الرحلة من النهاية . . ينحنى منه الظهر ويكف ويكل البصر . . ويكثر بكاؤه على الراحلين . . ويفجعه ما حدث لعثمان فينتفض ثورة برغم السنوات التى ينوء بها كاهله الرقيق ويبكيه ويدعو للثأر . .

شدُّوا السيوف بثُنىٍ فى مناطقكم
حتى يحين بها فى الموت من حانا

لعلكم أن تروا يوماً بمغبطةٍ
خليفة الله فيكم كالذى كانا
تسمعن وشيكاً فى ديارهم
الله أكبر يا ثارات عثمانا

وخفت الصوت رويداً رويداً.. وينطفئ نور البصر وتبلغ الرحلة نهايتها. ويكمل حسان بن ثابت شاعر رسول الله والصحابى الجليل أعوامه المائة والعشرين ولم يبق منه سوى دمعة لا تكف عن التسكاب شوقاً وحناناً إلى من قربه وأحبه وخصّه دون سائر الشعراء.. إلى سيد البشر محمد رسول الله بعد أن خاض معه الرحلة.. وتابعها بعده حتى خلافة على بن أبى طالب:

فبكّى رسول الله يا عين عبرةً
ولا أعرفنك الدهر دمعك يجهدُ
ومالك لا تبكين ذا النعمة التى
على الناس منها سابغٌ يتعمدُ
فجودى عليه بالدموع وأعولى
لفقد الذى لا مثلهُ الدهر يوجدُ
وما فقد الماضون مثل محمدٍ
ولا مثله حتى القيامة يفقدُ
أعف وأوفى ذمةٍ بعد ذمةٍ
وأقرب منه نائلا لا يكدّ
وأبذل منه للفريف وتالد
إذا ضنّ معطٍ بما كان تتلدُ

وأكرم صيتاً فى البيوت إذا انتمى
وأكـرم جـدًّا أبْطحيًّا يُسوّدُ
أقول ولا يلقى لقولى عائبٌ
من الناس إلا عازف العقلُ مُبعدُ
وليس هوائى نازعاً عن ثنائه
لعلى به فى جنة الخلدِ أخلدُ
مع المصطفى أرجو بذاك جوارهُ
وفى نيْل ذاك اليومِ أشقى وأجْهَدُ

« أبريل ١٩٧٢ »

الخليلُ بن أحمد

عاشقُ العَرُوض

«من أحب أن ينظر إلى رجل من الذهب والمسك . . فلينظر إلى الخليل بن أحمد»

«سُفْيان الثورى»

«أكلت الدنيا بعلم الخليل بن أحمد وكتبه وهو فى خَص لا يشعر به أحد» .

«النضْر بن شميْل»

الخليل بن أحمد

هذا عاشق من لون آخر . .

عشق الشعر والشعراء كما لم يعشقهما أحد . .

كانت القصيدة محبوبته الأثيرة . .

وكانت موسيقى الشعر عشقه الوحيد . .

وعندما قيل له : أكل هذا الهيام بالشعر ولا تكتب قصيدة واحدة وأنت أعلم الناس به . قال : الذى يجيئنى منه لا أرضاه والذى أرضاه لا يجيئنى»

لقد عرف قدر عشقه وبلاء حبه فاكتفى بأن يكون راهباً فى دير المحبوب طوال خمسة وسبعين عاماً عاشها لم يلتفت لزخرف الدنيا ولم يحفل إلا بأن يضيف جديداً لتراث العربية .

ذلك هو الخليل بن أحمد الفراهيدى عبقرى العرب وأستاذ سيبويه وعاشق

الشعر الذى عكف عليه وجمعه وأرجعه إلى قواعد وتصنيفات أسماها البحور وأدرج كل بحر فى منبعه ومصبه وضبط قواعد الإيقاع وسمى كل ذلك بالعروض . . لأنه كان مقيماً بالعروض وهى مكة فسماها بركة ويمنا . .

ولقد سمّوه عبقرى العرب لأنه سبق زمانه بألف عام ومائتين وأكثر ولأنه كان أبعد مدى وأرحب فى ميدان الكشف والعلم من العروض والشعر .

ولم يضق أحد بالخليل مثلما ضقنا به ذات يوم ونحن نتخطى عتبة الجامعة ونتعثر فى أوزانه وخوافى عروضه . . ولاح لنا يومئذ مجرد عربى تحاصره الصحراء من كل جانب ويملأ الفراغ ما بين يديه فيحتال عليه باختراع قيود للشعر خلناها فى باكورة الشاعرية لغطاً لغط به اللاغطون من باب فقه الشعر تجنى على روحه وجوهره أكثر مما تلقى ضوءاً للشاعرين .

وكان الخليل وحده — سامحه الله — سبباً فى أن نهجر الجامعة ، إلى لون آخر لا يطاردنا فيه « حذفه وخبنه وباقى علله » ، ولا ألغاز صحبه من كتاب الشذور والطبقات إلى آخر القائمة .

وخيّم علينا يومها جوانب الرجل الأخرى ولم يتح لنا أن نعانق روحه وعقله فى مضيق الدرس وزحام المناهج .

ومرت الأيام وعدنا للخليل فى غير مضيق ولا مناهج . . فإذا بنا أمام عبقرى فريد فى نوعه وهب نفسه للعلم والابتكار والبحث والتأمل الدائم . وآمن على كثرة الشعاب التى ارتادها بالعلم والفن وخاض دروبه جميعاً ونحواً ولغة ورياضة وكيمياء وموسيقى . .

فكان أول من ضبط قواعد الموسيقى واخترع أصولا لها سار عليها العازفون . وعدل من لعبة الشطرنج الفارسية . وعرف تراكيب الأدوية وفك رموز اللاتينية .

وحصر ألفاظ العربية جميعاً ، ووضع تشكيلا جديداً لحروف اللغة ، نسخ به ما فعله أبو الأسود الدؤلى .

وأخيراً اكتشف أوزان الشعر العربى فحفظه من الضياع ونسج له ثوباً ستر به عورته أمام القادحين والمخالطين له من غير العرب .

أكثر من شىء آخر عالجه الخليل وأضافه أو حاوله فلم يمهل دونه . . !

لذلك صدق قولهم فيه :

« لم يكن فى العرب بعد الصحابة أذكى منه »

الشعر والموسيقى بين سوقين :

أسرع صاحبه أبو المعلى . . الخطى . . هرباً من ضجيج الآلات ودق أوانى النحاس وهو يعبر سوق الصفَّارين . . هو والخليل . . فى نفس الوقت الذى أمهل فيه الخليل الخطى ومد أذنيه يتسلق هذه الأصوات المتناثرة فى الهواء وكأنه يطيب نفساً بدوى الآلات وصفيرها .

ويشده صاحبه ثائراً وهو يعنفه قائلا :

لقد أصبحت قعقة أوانى النحاس موسيقى جميلة تأنس إليها . . ألا أسرع الخطى لنخرج من هذا الصفير !

ويقول الخليل وهو مشدود السمع بعيداً عن صاحبه :

ما قلت إنها موسيقى جميلة . . ولكنها تشبه الموسيقى . .

فما الفرق بين المطارق تقرع وأوانى النحاس تحدث دويا تنكره الأسماع ، وبين الأنامل والريشة تمر على الطبول والدفوف فتحدث نغماً تستطيبهُ الآذان . .

ويضيق معه صاحبه فيشده ويخرجان من سوق الصفارين . . ليلاحقها من

بعيد دوّىّ منبعث من سوق القصارين . . وهم فئة منظفى الأثواب وغسلها فى ذلك العصر . . يستخدمون فى ذلك مطرقة من الجلد تسمى « الكُدَ يتق » وهى قطعة جلد أو أكثر وتحدث قرعاً عندما يضرب بها الثوب .

وشغل الخليل عن صاحبه واستند إلى حائط وألقى بسمعه إلى هذه الأصوات وأخرج لوحة وأخذ يدون رموزاً مبهمة غير عابئ بغمزات المارة . ولا بدهشة صاحبه . .

وإنما ذهب فى واد عميق مع اكتشافه الجديد . .

ويضيق به صاحبه أبو المعلى فينبهه إلى تكاثر الناس وتجمهرهم حوله ويفيق الخليل وكأنه كان فى غيبوبة ويقول :

اسمع هذه الدقات إنها جامدة بلا رنين . . مخالفة لذلك الرنين المنبعث من دقات سوق الصفارين . . اسمع . .

ضربات الجلد تحدث صوتاً مثل كلمة « تن » ولكن كسل القصار . . يجعله يتباطأ ويحدث فاصلا زمنيا يحدث صوتاً جديداً مركباً هو (تن . . تن . . تن) .

والتقط الخليل نغمة أخرى من قصار يضرب بكذينق ذات جلدتين فيكرر الصوت نغمة تختلف عن الأخرى . .

ثم يتداخل صوت قرع القصار الكسول بالآخر مركباً بذلك مجموعة من الكلمات المنغمة على نحو جديد . .

ويجىء صوت قصار ثالث بكذينق ذات ثلاثة جلود فتختلط النغمات لتكون إيقاعاً مخالفاً لما سبق . . فمرة . . كدقات طبل المسحراتى . وأخرى كدقات طبل العُرس .

ويسترسل الخليل : دقة وسكون . . دقتان وسكون . . ثلاث وسكون . .

إنها نقرات لو تداخلت على نسق مرسوم لولّدت نغماً . . ولأمكن فى ضوئها التمييز بين النغمات باجتماع هذه النقرات أو تفرقها وبتوزيعها أو حصرها جميعاً . . وبتسجيلها يمكن ضبط وتصريف الموسيقى ويستمر الخليل فى شرح فكرته وهو لم يبرح السوق . .

وتنهمر دموع صاحبه وهو يعانقه . . وانطلقا ! وعندما يطرقان باب شيخ المغنين وأستاذ الآلات ، أبو رافع ، يستقبلها وهو يقول للخليل ؟

ما حاجتك . . أعزف على العود أم غناء ؟

ويقول الخليل : بل رغبت فى معرفة قواعد الموسيقى .

ويسخر أبو رافع من قول الخليل فيقول : أهى نحو . . كذلك الذى برعت فيه ؟ ليس ثمة قواعد لهذا الأمر . . ولترجع إلى نحوك ولغتك يا ابن أحمد .

ويخرج الخليل لوحه وعليه الرموز التى خطها من وحى جولة السُوقيْن . . ويروى له ما حدث وما يتطلع إليه من ضبط للموسيقى ، والرجل يصغى ويهز رأسه ثم يقول :

لعل فيما قلت جديداً حقًّا . . ولكنه لن يفيد أحداً . . فالموسيقى تسير على ما تسير عليه ، والناس تهيم بها ولا تطلب أكثر من ذلك فلا تتعب نفسك .

ويعود الخليل من عند شيخ المغنين حزيناً ليغلق على نفسه المنزل ولا يبرحه إلا وقد أخرج أول كتاب للموسيقى ، تراكيب الأصوات . .

وضع فيه قواعد وأصولا لضبطها واتصل بالموسيقيين يعلمهم أصول كتابه ، ويردد معهم الألحان ، ويندمج فى حلقاتهم كما اندمج من قبل فى حلقات النحو واللغة ولا يفارقه لوحه يخط عليه رموزاً ويمسحها ويسودها ثانية . .

وكأنه لم يفرغ من كتابة الذى وضعه للناس بعد . . فقد كان فى داخله شيء

آخر . . يتضع إليه . .

ولا يهدأ إلا وقد استخرج من قواعد الموسيقى . . قواعد تعروض . . ويكتشف أن السكون فى الشعر هو كالسكون فى الموسيقى . . ويلتقط بذلك أول خيط .

ولده الأحمق والاكتشاف الجديد :

وكان للخليل ولد أحمق . . خرج ذات يوم من داره وهو يصيح :

وا أبتاه . . لقد جن أبى . . فقد عقله

وا مصيبتاه . . لقد ضاع أبى . . فقد رأسه

ويتجمع الناس على الصراخ ويدخلون الدار . . ليروا الخليل بن أحمد بلا رأس . . !

فقد أخفى رأسه فى فوهة بئر بوسط الدار . . وهو يزعق بأصوات لا معنى لها سوى تجاوب الصدى ويلكزه أحدهم . . ويخرج الخليل رأسه من البئر ويستدير متعجباً هذا الجمع الذى يملأ الدار .

ويقول أحدهم :

ابنك ظنك جننت واستغاث بالناس فلبيناه . .

وضحك الخليل وقال معقباً على حماقة ولده وهو من شعره القديم .

لو كنت تعلم ما أقول عذرتنى
أو كنت أعلم ما أقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتى فعذلتنى
وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

ويقول لهم الخليل :

لا ثمة جنون . . لقد كنت أطبق اكتشافى الجديد تطبيقاً عملياً . . فقد وجدت

الأعاجم يقدحون على الشعر العربى .

ولعلكم تذكرون ذات ليلة وقد هاجم الأعاجم الشعر ووصفوه بأنه لا ضابط له بعكس شعر اللغات الأخرى . وأن أصله الطبع ومقياسه الأذن . .

وأن الطبع عرضة للفساد . ومقياس الأذن قابل للخلل . .

وما زلت مأخوذاً بتدبير ميزان يضبط الشعر ويحفظه من الضياع . . ولما استطعت حصر أصول الأنغام بكتابى « تراكيب الأصوات » اكتشفت فى نفس الوقت أن مقياس الشعر بين يدى .

فالشعر إنشاد مرافق للموسيقى إذا اتحدت المقاطع تصح المرافقة ويتحد الإنشاد . وعشت وسط المغنين وتحلقت حلقاتهم أقابل تقاطيع الموسيقى بألفاظ الشعر وأوزانها فى سوق القصّارين حيناً . وفى سوق الصفّارين حيناً آخر . . وأنشده على نقراتهم . .

وكان أهم ما بهر نظرى هو نهاية المقطع الموسيقى وما فيه من سكون . . أى ما يقابل النون فى (تن تن) .

والشعر كالموسيقى حركة وسكون . . وبهما يضبط الشعر . . ولم يبق إلا أن أقطع هذا الشوط . .

وكنت الساعة أختبر صحة اكتشافى قبل أن أعلنه بتطبيق القاعدة على مقاطع الشعر وتظهر واضحة فى صدى البئر . .

وموعدنا بالمسجد الجامع لأحكى أمر هذا الاكتشاف وأعلنه . .

ووسط الجمع الحاشد بالمسجد الجامع وقف الخليل يعلن أول اكتشاف لعلم العروض فقال :

لن يستطيع إنسان أن يقول غير الشعر . . فيدعى أنه شعر . . !

أيها العرب فاخروا بشعركم فهو عن سجية لها أصولها المضبوطة .

وأنهى إليهم اكتشافه وهم ما بين مصدق ومكذب . . وارتفعت من حوله الأصوات تطالبه بأن يضبط بميزانه الجديد معلقة امرئ القيس ففعل . .

وأجاب على أكثر من سؤال . . وانتشرت حلقات العروض يطبق فنه على شعر العرب . . بل فتح آفاقاً جديدة فاستحدث بحوراً جديدة فى الشعر وابتدع وزناً - فعلن أربع مرات . .

أبكيت على طلل طربا فشجاك وأحزنك الطلاء

وكذلك :

هذا عمرو يستعفى منْ زيدٍ عند الفضل القاضى
فانهَ عمراً إنى أخشى صَوْلَ الليثِ العادِى الماضى

واستخرج منهما وزناً اسمه المخلع . . !

رجل من مسكٍ وذهب :

وكان بذلك الخليل . . أول من وضع فن أوزان الشعر . .

ومع ذلك لم تنته جولته فى مجال الكشف والارتياد . .

فقد كان صاحب طاقة لا تنفد ما يفرغ من اختراع شىء . . إلا ويعكف على كشف جديد آخر . .

ساعده فى ذلك ذاكرة نفاذة . وعقل مقتحم وروح محبة للعلم . .

استطاع مرة أن يفك حروف اللاتينية فى خطاب . . كتب فى مطلعه « بسم الله الرحمن الرحيم » باللاتينية كعادة ذلك العصر . . فحصر حروف هذه الجملة . . واستخرجها من الخطاب وفك رموزه بذلك .

ومرة أخرى مات أحد الذين يركبون دواء معيناً لا يعرف سره غيره . . وهو مكون من ستة عشر خليطاً . . وعكف الخليل على القارورات والأوانى التى كان يستعملها مركب الدواء . . يشمها . . ويفرق بينها وبين الأخرى . . ويراجع ما بقى من الأدوية حتى عثر على خمسة عشر خليطاً ركب بها الدواء .

واستطاع الخليل : أن يحصر ألفاظ العربية جميعاً وقطع شوطاً كبيراً فيها ثم تركها ليكملها عنه صاحبه الليث . . فأكملها فى «كتاب العين» .

كما أوحى إلى تلميذه سيبويه . . بوضع كتاب يكون دستوراً للنحو فوضع من وحيه وتحت إشرافه مؤلفه الذى سماه «الكتاب»

وعدل عن لعبة الشطرنج الفارسية وأدخل عليها جديداً .

ولم يكن سفيان الثورى مبالغاً حين قال : من أحب أن ينظر إلى رجل من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد .

ولم يقنع الخليل بما أضافه إلى التراث العربى من ابتكار . .

فعكف فى آخر أيامه عام ١٧٥ هجرية على وضع قواعد للحساب والرياضة . . وشغل بها واستغرقه التفكير وهو فى المسجد فاصطدم على غير وعى . . بعمود هناك فشجت رأسه وكانت نهايته وكان آخر ما قال :

«لا تبكوا . . فوالله ما فعلت فعلا أخاف على نفسى منه .

وما كان لى فضل فكر صرفته إلى جهة وددت بعد ذلك أنى كنت صرفته فى جهة غيرها .

وما علمت أنى كذبت متعمداً قط وأرجو أن يغفر لى الله التأول» .

«سبتمر ١٩٦٣»

المراجع

١ – الأغانى — للأصفهانى

٢ – الكشكول — للعاملى

٣ – عيون الأخبار — لابن قتيبة

٤ – العقد الفريد — لابن عبد ربه

٥ – فحول الشعراء — للأصمعى

٦ – الكامل — للمبرد

٧ – أسرار الحماسة — لأبى تمام – تحقيق سيد المرصفى – الجزء الأول

٨ – المفضليات — لابن الأنبارى

٩ – حياة الحيوان الكبرى — للدميرى

١٠ – قصص العرب — جاد المولى والبجاوى وأبو الفضل إبراهيم – الجزء الأول

١١ – الفتوة عند العرب — عمر الدسوقى

١٢ – الصعلكة والفتوة فى الإسلام — أحمد أمين

١٣ – الشعراء الصعاليك — د . يوسف خليف

١٤ – فى الرواية العربية — فاروق خورشيد

١٥ – فى القصة العربية القديمة — محمد مفيد الشوباشى

١٦ – عرس ومأتم — البدوى المُلثَّم

١٧ – الحب المفترس — رئيف خورى

١٨ – ديوان ديك الجن — تحقيق د . أحمد مطلوب

١٩ – ديوان – أبو نواس — د.عبدالله الجبورى

٢٠ – عمر الخيام — هارولد لام

٢١ – مقدمات وترجمات رباعيات الخيام للبستانى والسباعى وأبوشادى ورامى

٢٢ – حسان بن ثابت شاعر الرسول (أعلام العرب) — د . سيد حنفى

٢٣ – قصة عبقرى — يوسف العش

٢٤ – نزهة الألّباء فى طبعات الأدباء — للأنبارى

٢٥ – ديوان الهذليين

فهرس

	صفحة
مقدمة	٥
ديك الجن - عاشق المأساة	٧
عمر الخيام - عاشق النجوم	٦٣
حاتم الطائي - عاشق الكرم	١٠٩
عروة بن الورد - عاشق الصعاليك	١٢٨
مضاض ومي - عشاق العطش	١٤٥
حسان بن ثابت - عاشق الرسول	١٦٣
الخليل بن أحمد - عاشق العروض	١٧٨
المراجع	١٨٨

رقم الإيداع	١٩٨٤ / ٥١١٦
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-١٠٠٨-٠

١ / ٨٤ / ٩٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

٤٠٤٩٠/٨/١٠٢